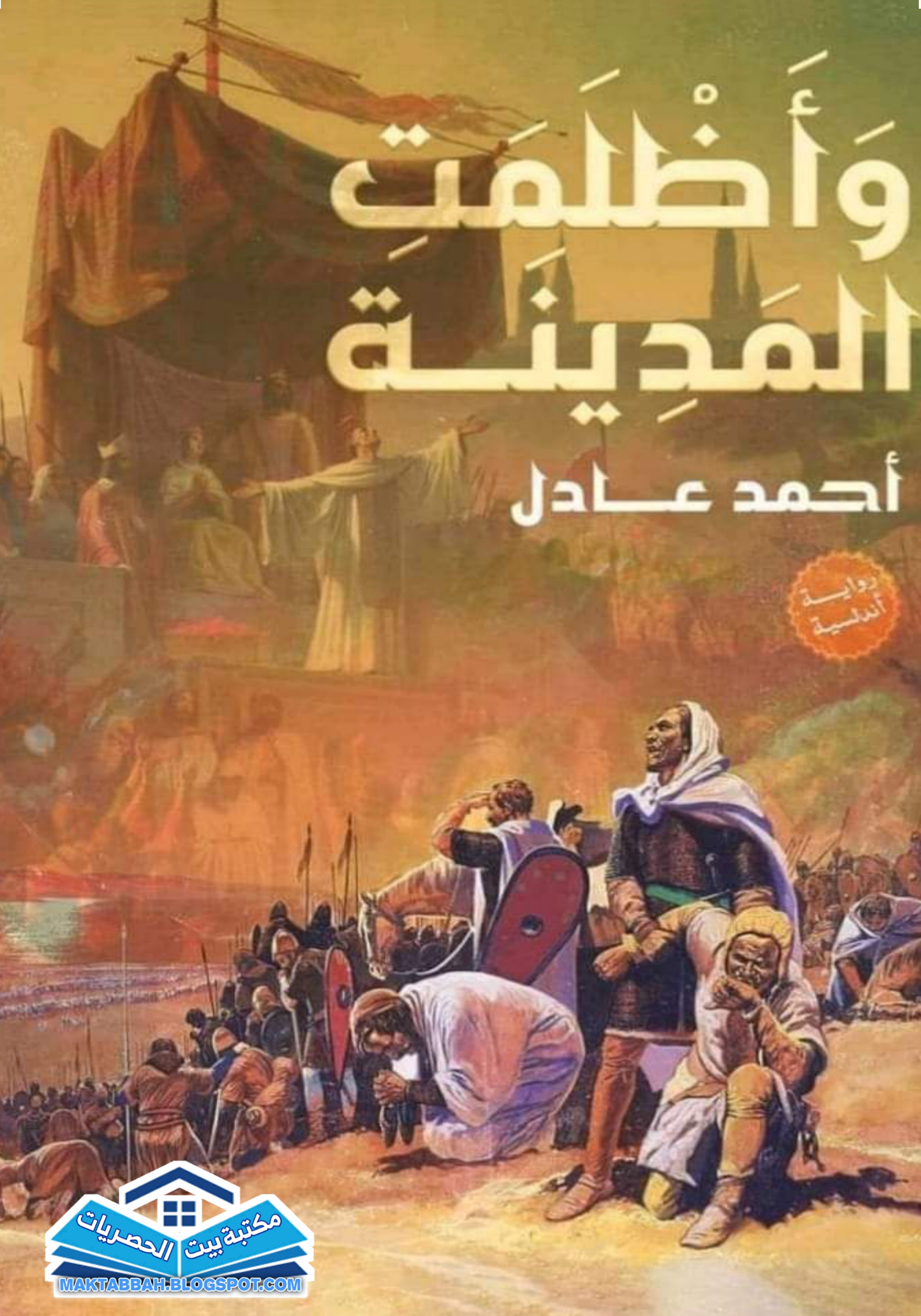

وَأَظْلَمَتِ
المَدِينَة
أحمد عادل
رواية أندلسية
مكتبة بيت الحصريات
MAKTABBAH.BLOGSPOT.COM

حكايا التاريخ

رواية

وأظلمت المدينة

أحمد عادل



إهداء

- إلى مَن كافح في حياته مِن أجلي طويلًا؛ **أبي الحبيب**، أطال الله في عمرك.
- إلى مَن كانت تنافسُ الغيثَ في العطاء؛ **أمّي**، رحمها الله.
- إلى مَن تسعد عيني برؤياهم، وتحلو الحياة بلقياهم؛ **زوجتي وأبنائي؛ سفيان وسجدة.**
- إلى راوي الأندلس الدكتور **محمود ماهر**.
- إلى **عشّاق الأندلس** في كلّ ربوع الأرض....

أهديكم هذا العمل.

الفصلُ الأوّل

إشبيلية ١٤٩٩م

ليلةٌ هادئة من ليالي الشّتاء، وقد تدثّرت السماء بالغيوم، وهبّت أنسامٌ لطيفة داعبت ذوائبَ الأشجار العالية، فتهادت يمنةً ويسْرة، وحملتِ الأنسام في طيّاتها رائحة المطر، لحظات وزخّت السّماء مطرًا غزيرًا، وبلّلت الثرى وغسلت الأرض، سرى الليلُ ساحبًا بُساطه من تحت أقدام الخيل التي أضْناها طولُ المسير، وفارس أرخى العنان لجواده، لا يكلّ مِن لكْز جوادِه ليزيد من سرعته رغمَ هطول المطر، يمدّ يدَه يتحسّس شيئًا قدْ شدّه على خصْره، والسّكون قد لفّ المكانَ ممّا زاد مِن مخاوفه، وقد شردَ بفكره متذكرًا الحوارَ الذي دار بينه وبين سيّده صباحًا.

أقبلَ غارسيا قاطعًا الدّهليزَ المؤدّي إلى بهْو السّفراء في قصْر الحمراء، ليجد الكونت تنديا ينتظرُه، وقد أمسكَ بورقة في يده.

جثَا غارسيا على ركبتيْه هاتفًا:

- أمرُ سيدي الكونت تنديا.

أشارَ الكونت تنديا للفارس فنهضَ وأقبلَ ناحية الكونت، الذي مدّ يدَه برسالة قائلًا:

- أيّها الفارس، لم أجدْ أكفأ منك لأعهدَ إليه بذلك الأمر الخطير.

نظرَ غارسيا إلى الرّسالة التي في يدِ الكونت، وقال:

– هذا نبلٌ منك سيّدي الكونت، وسيكون غارسيا كما أردت.

انفرجتْ أساريرُ الكونت تنديا وأردفَ قائلًا:

– تلك رسالةٌ يجب إيصالُها إلى الملك فرناندو في إشبيلية بأقصى سرعة، فالأمرُ خطير جدًّا.

التقطَ غارسيا الرسالةَ من يد الكونت، ووضعَها في حزامِه الجلدي المشدود على خصره وهو يهتف قائلًا:

– فلتأذنْ لي يا سيّدي بالانطلاق.

أشارَ إليه الكونت تنديا لينطلقَ قائلًا:

– فلتذهبْ في رعاية الرب.

تخيّر غارسيا أفضلَ جياده، وتمّ تجهيزُه. خرجَ من غرناطة سريعًا، وأرخى لجواده العنان ليكونَ على الطريق قبلَ مَغيب الشمس.

أفاقَ غارسيا من شروده، ليجدَ حصانه قد أبطأ قليلًا، فلكزَه ليزيد من سرعته، فهو يعلم جيدًا أنّه يحمل رسالةً خطيرة، ويريد أن يزيحَ همّ إيصالها من على عاتقه، لقد كان الطريقُ طويلًا، لكنْ ما كان يهوّن عليه أنّ ما ينتظره في نهايته هي الجميلةُ جارة الوادي، فجمالُ النهايات يمْحو ألم البدايات.

إشبيلية... عروسُ المدائن الأندلسية، تلك المدينةُ السّاحرة التي طالما سمع عنها الأعاجيب، تلك المدينةُ الضاربة بجذورها في عمقِ التاريخ،

لطالما سمعَ عن برج الذهب وبرجِ الجرس (الخيرالدة) والنّهر الكبير، فكان يُمنّي نفسَه بالنظر إلى تلك التحَفِ المعماريّة التي ظلّت شامخةً في وجه الزمان.

ومعَ إشراقات الصّباح، لاحتْ له من بعيدٍ تلك الفاتنة، فَجدّ في المسير إليها، حملته ساعاتُ الضحى فأضحَى في إشبيلية، تلك المدينة التي ظلّت صامدةً في وجه الحصار وما سقطتْ إلّا عندما قُطع عنها مجرى النّهر الكبير، وغزاها الجوعِ، فالجوعُ يسري في النّاس كالنّار في الهشيم، والجوعُ أشدّ ما يقتل الرجالَ ويحطّم الآمال، نعم.. قد حدّثوه عنها، ووصفوها له، لقدْ كذبوا عليه فقد أتى وصفهم ناقصًا.

أبطأ من سرعةِ حصانه وقد سارَ مختالًا في طرقاتها وأزقّتها، جمالٌ أخّاذ، وبيوت يكسوها اللونُ الأبيض، حدائقُ غنّاء يفوح عطرها في كلّ مكان.

بدتْ إشبيلية كزهرةٍ متفتّحة تتهادي في بهاءٍ مثل المراكب المنزلقة فوق مياه الوادي الكبير، الميناءُ الكبير يعجّ بالحركة الدّائمة كخليّة نحل، وجوهٌ كثيرة.. لكلّ واحد حكاية، جنودٌ ومجهّزو السفن، بحّارة من البندقية وجنوة، وأناسٌ يتصبّب العرق منهم؛ مشغولون بإفراغِ حمولات السّفن القادمة من الأرض الجديدة، الرّصيفُ يكتظّ بصناديق خَشبية كبيرة، أشياء كان لأوّل مرةٍ يراها في حياته، أناسٌ مغلولة أيديهم وأرجلهم يسوقهم الجند، يغلبُ عليهم الحُمرة ونحولةُ الجسد. كان الميناء سوقًا كبيرًا للقدر يضرب فيه موعدًا للمجْد والثراء والبؤس والرق والشقاء.

- لم أرَ في حياتي مثلَ هؤلاء، ما جريرتهم؟.

همسَ بها غارسيا محدّثًا نفسه، أسئلة تبدّدت في الهواء لم يجدْ لها جوابًا.

لاحظَ تلاحق السّفن وتقاطعها وهي في طريقها إلى السّواحل البربرية أو عائدة من البحر المتوسط، كان كلّ شيء متحركًا، خشي أنْ يتأخّر في تسليم الرسالة، أدار رسنَ حصانه تاركًا كلّ شيء خلفه.

سارَ في شوارع إشبيلية التي تشبه إلى حدٍّ كبير شوارعَ غرناطة، أشجار على جانبي الطّريق، أزهار متفتّحة تعجّ بالروائح الجميلة، الشّوارع مبلطة بالأحجار المصقولة الملونة؛ الصّفراء والسوداء، يتخلّلها خطوطٌ ضيّقة صنعتْ لتصريف مياه الأمطار، سار مقلبًا ناظريه في كلّ شيء، تناهى إلى سمعه نداءاتُ الباعة في الأسواق، ذاك ينادي على بضاعته من الزيتِ الإشبيلي، وآخرُ ينادي على التّين الجياني، وآخر ينادي على بضاعتِه من الرّمان الغرناطي، سمعَ للتّو وصفًا لمدينةٍ قد سكنت قلبه.

عادتْ به ذاكرتُه إلى الوراء قليلًا، تذكّرها وهو الذي لم ينسَها، فله فيها إقامة لا تزيد على سبعةِ أعوام، لكنّها سكنت روحَه قبل أن يسكنها، مدينةٌ تحفّها الأشجار والأزهار معَ روْعة النّهر الجاري في ربوعها. دارَ في خلده سؤال، كيف تسنّى لهم أن يسلمونا تلك الجنّة بدون مقاومة..؟!. نفضَ عنه تلك الهواجسَ وجَدّ في المسير، يريد إنهاء المهمّة التي أتى من أجلِها، تحدّثُه نفسه أن يتجوّل في المدينة الساحرة بعد أن يُنهي مهمّته.

قصرُ المورق (المبارك) – إشبيلية

قصرٌ يقرّ العين منه مصنـــع بهج الجوانب لو مشى لاختالا

مازلت تفترش السّرور حدائقًا فيه وتلتحــفُ النعيــم ظلالا

ابن زيدون

قطعَ غارسيا الطرقَ المؤدّية للقصر، شاهدَ تلك المباني العتيقة ذات الزخارف البديعة، إشبيلية تعجّ بكلّ الوجوه التي أتتْ من أجل الإبحار من مينائها إلى الأرض الجديدة. إشبيلية بوّابة الثّراء، الحوانيت ودورُ الإقامة تملأ المكان، توقّف غارسيا أمام قصر المورق في وسط المدينة، مبنى ضخمٌ يحيط به سورٌ ذو زخارف بديعة، أشجار البرتقال وارفةُ الظّلال، وحدائق الزهور البديعة تحيطُ بالقصر من كلّ اتّجاه. اقتربَ من البوابة الكبيرة للقصر، نزلَ عن حصانه وأمسك برسنه، وهتف قائلًا:

– أيّها الجندي، إنّي أحمل رسالةً من غرناطة لجلالة الملك، فلتعجّل بفتح البوابة.

تحرّك الجندي وأدار البابَ الذي أصدر صريرًا عاليًا، وأقبل جنديّ فاقتاد الحصان إلى الإسطبل.

دلفَ غارسيا من البوابة الكبيرة يتبع جنديًّا من حرس الأبواب، قاده الجندي إلى مكان الانتظار.

- سأُعلم سيّدي القائد خوسيه بقدومك.

هتفَ بها الجندي مخلفًا غارسيا متأمّلًا في المكان.

بهوٌ شاسع تظلّله قبّةٌ عالية معقودة على أعمدة ومقرنصات عربية مزخرفة بالفسيفساء، يغلبُ عليها الطّابع الأندلسي رغم ما شهدته من تعديلاتٍ تمّ إدخالها في عهد الملك بيدرو الأول. طاف بعينيه في أرجاءِ القصر فلمحَ نقشًا في لوحة زرقاء يتخللها عبارة «أمرَ مولانا العظيمُ ملك قشتالة وليون- أدامَ الله سعده، وهنّأ أيامه- بعملِ هذه الأبواب الجديدة للقبّة السعيدة»، يحيطُ بالعبارة من جهة اليمين واليسار نقشُ «لا غالبَ إلّا الله»، ذاك النّقشُ الذي يجده بكثرةٍ في قصر الحمراء في غرناطة.

قطعَ خوسيه الدّهليزَ المؤدّي إلى مكان الانتظار عابرًا من البوّابة الكبيرة يتبعه الجندي، هتفَ خوسيه قبلَ أن يصل إلى غارسيا الذي كان متأمّلًا في النقوشات والزخارف:

- غارسيا، ها قد عُدت أيّها الفارسُ العنيد.

بالتفاتةٍ سريعة إلى الوراء، بحثَ غارسيا عن مصدر الصّوت المألوف لديه قبل أن تقع عليه عيناه وهو يهتف:

- نعم، عُدتُ يا صديقي، ولكنّني لن أمكث هنا طويلًا يا خوسيه.

تعانقَا طويلًا، فقد كان آخرُ عهدهما ذلك الحصارَ الذي جمعهما سويًّا تحت أسوار غرناطة، قبلَ أن يتفرّقَا بعد دخولهم المدينة بفترةٍ وجيزة، لتجمعهما الحرب وتفرقهما الأيام، فقدْ مكث غارسيا في غرناطة معَ حاكم المدينة الكونت دي تنديا، أمّا خوسيه فقد عادَ إلى إشبيلية معَ الملكين الذي استقرّ بهما المقام في إشبيلية.

هتفَ خوسيه مستفسرًا:

- وما ذاك الأمرُ الذي أتى بك إلى هنا، وقد أخذتك منّا غرناطة يا غارسيا؟

أجابَه غارسيا متحسّسًا ذاك الشيء الذي شدّه على خصره:

- ومَن قال لك إنّي سأمكث هنا! فأنا أحملُ رسالة إلى جلالة الملك فرناندو من سيّدي الكونت تنديا.

ربّت خوسيه على كتفِ صديقه في رفق، متمتمًا:

- حسنًا يا صديقي، انتظرني هنا ريثما أُعلِم جلالةَ الملك بقدومك، وأنّك تحمل له رسالةً من غرناطة.

وقفَ غارسيا خارجَ القاعة ينتظر أن يُؤذَن له بالدخول، جال بناظريه في أروقة القصر، كان مبهوتًا من ذلك الجَمال، وقد زادت دهشتُه من عظمة هذا الجدار الذي جذبه بفخامته، فالقصرُ يغلب عليه الطابعُ الأندلسي الذي يغلب على كلّ قصور الأندلس.

في حين دلفَ خوسيه إلى قاعة متّسعة الأرجاء، جدرانُها مزينة بزخارف وتوريقات وعباراتٍ إسلامية، وقد حُمل سقف القاعة على أعمدة من المرمر، واكتست الجدران بنقوشات ذهبية بديعة يتخلّلها أدهنة حمراء وزرقاء وخضراء.

كان الملكُ فرناندو يجلس متّكًا على كرسيه مُمسكًا بيده كأسًا أنهاه للتّو من النبيذ، وقد جثَا خوسيه تحت قدميه هاتفًا في احترام:

– مولاي الملك، لقد أتى فارسٌ من غرناطة يحمل رسالة لجلالتكم.

اعتدلَ فرناندو قائلًا في اهتمام:

– ماذا تنتظر؟!، أدْخله على الفور.

يُنهي كلمته وهو يضعُ كأس الخمر الفارغ على المنضدة.

انطلقَ خوسيه لينفّذ الأمر ليدلفَ إلى القاعة فارسٌ عليه وعثاء السفر، حالُه تدلّ على أنّه لم يذقْ طعمَ النوم أو الراحة، ويجثو على ركبتيه مُلقيًا التحية على الملك.

تأمّل الملك ذلك الفارسَ المنحني أمامه ليأمرَه بالنهوض وهو يشير إليه قائلًا:

– هاتِ ما عندك.

– مولاي الملك، لقد أرسلني سيدي الكونت دي تنديا برسالةٍ لجلالتكم، وقد طلب توصيلَها لجلالتكم على وجْه السّرعة لخطورة الأمر، وطلبَ منّي انتظار ردّ جلالتكم.

أشار فرناندو بيدِه للحارس الذي يقف على مقربةٍ منه ليأخذ الرسالة من الفارس، ويضعَها بين يدي الملك.

فضّ فرناندو الرسالة، وطالعها في اهتمام قبل أن يطويها هاتفًا في الفارس:

– اذهبِ الآن لتستريح، وسنرسلُ معك رسالة لتحملها لسيدك.

نهضَ الفارس، وحيّا الملك وهو يسير بخطواته إلى الوراء.

لحظات وأصبحتِ القاعة فارغةً من الجند، لقد صرفهم فرناندو بإشارةٍ من يده، وهبط شبحُ الصّمت على القاعة، تناول فرناندو الرسالةَ وطالعها مرّة أخرى محدّثًا نفسه..

– غرناطة، إنّكِ لرمّانة صلبة عكس ما كنّا نتوقّع، كنّا نحسب أنكِ هشة لا تتحمّلين في يد جلّادينا شيئًا، لكنْ أثبتّ عكسَ ذلك.

وفي غفلةٍ من أمره وهو غارقٌ في تفكير عميق تدلفُ امرأة متوسطة الطول، بيضاء البشرة، مائلة للسمنة، ذات شعر ذهبيّ معقوص للوراء، وأنف أفطس بعض الشيء، تجمّعَ في عينيها خليطٌ من الخضرة والزّرقة؛ إلى قاعة الحكم، وقد رأته على حاله هذه، في حين لم يشعرْ هو بمجيئها، قطعتِ البهو ثمّ صعدت وجلست بجواره، تأملته فوجدته مازالَ غارقًا في تفكير عميق. أفاق فرناندو على صوت يخاطبه:

– ما الذي يشغل تفكيرَ جلالة الملك..؟

التفتَ فرناندو ناحية الصوتِ ليجدَ إيزابيلا، ممّا جعله يتمتم:

- غرناطة تأبى الاستسلام.

اعتدلتْ في جلستها وهي تصغي السّمعَ، فالأمرُ يبدو جللًا، ممّا جعلها تهتف في توتر:

- وماذا حدث في غرناطة؟!

قرأ فرناندو عليها الرسالة، ثمّ طواها من جديدٍ هاتفًا في عصبية:

- لقد فشلَ إيرناندو دى طلبيرة فى تنصيرِ مسلمي غرناطة، تلك المدينة العنيدة يبدو أنّها رمّانة صلبة لا تأتي باللين، الغرناطيون.. كنّا نتوقّع أن يتنصروا بأسرع من ذلك، فقدْ أمضى كلّ من الكونت تنديا والأب إيرناندو دي طلبيرة أكثرَ من سبعِ سنوات في غرناطة ولم يحقّقَا بعدُ نتائجَ تُذكر في التنصير.

هتفتْ إيزابيلا وهي تزوي ما بين حاجبيها في ضيق:

- لقد أخطأنا عندما تعاملنا معهم باللين، هؤلاء لا يُجدي معهم الحُسنى، يجب أن نسعَى لتنصيرهم مهْما كلفنا الأمر.

أفرغَ فرناندو ما تبقّى من كأس من النبيذ في جوفه وهو يهتف في صوت أجش:

- نخشى إنْ أجبرناهم على التنصير أنْ يُشعلوا الثورة في غرناطة، ولا توجد لدينا أيّ معلومات عن كمّ الأسلحة التي لديهم، ولا عن عددهم، فهم لا يستسلمون لعدوّهم بسهولة، هُم أمّة تمرضُ ولا تموت، فقد يظنّ الناظر إليها أنّها على شفا الموتِ فتنهض من جديد أشدّ ممّا كانت عليه من القوة؛ لذلك يجب علينا أن نأخذَ حذرنا منهم.

قطبتْ إيزابيلا جبينها متسائلة باهتمام:

– كيف نسمحُ لهم أن يكونوا من رعايانا ونحن نملك غرناطة ولا نملك ولاءهم لنا؟!، إنّ تنصيرهم غايتنا مهْما كلّفنا الأمر، يجب توحيدُ المملكة تحت راية الكاثوليكية، حتّى لو كان ذلك بالقوة، فهُم لا يعلمون أنّنا نريد الخلاص لأرواحهم.

لم يتمالك فرناندو نفسَه من الغضب وهو يهتف:

– أخشى إنْ أجبرناهم أن يستصرخوا بإخوانهم في عدوة المغرب، يجب ألّا نفتح علينا أكثرَ من ثغرة لكيلا تتشتّت قوانا.

ارتسمتْ على وجهها ابتسامةٌ ماكرة وهي تتمتم:

– لقد انفرط عقدُ المسلمين يا عزيزي فرناندو، تناحرهم فيما بينهم مَكّن لنا أن نستعيدَ بلادنا، فقد ولّى زمنُ المرابطين والموحّدين والمرينيين، حكامُ عدوة المغرب ما يشغلهم الآن هو الصراعاتُ التي بينهم، لن يلتفتوا إلى مملكتنا، هم يواجهون مملكةَ البرتغال ولا نخشى جانبهم.

نهضتْ من مجلسها دفعةً واحدة، ثمّ سارت خطوات قليلة، ثمّ توقفت وكأنما تذكرت شيئًا، فقدْ بدا أنّها وجدت حلًّا لتلك المشكلة قد غاب عنهم، ممّا جعلها تهتف في فرح:

– نعم... إنه هو... إنه هو...

أخذتِ الدّهشة فرناندو عندما وجدها تصرخُ هكذا، ممّا جعله يهبّ واقفًا ليتجه إليها مخاطبًا في لهفة:

– مَن هو...؟!

غرناطة

تسلّل الليلُ ساحبًا خيوطه، وبدأ الصبحُ في نسج خيوطه مُعلنًا بدايةَ يوم جديد، عَلت الشّمس في كبدِ السّماء، وتدثّرت بالغيومِ الرمادية التي تكثر في مثل هذه الأيام، خرج من بيته في حيّ البيازين، سارَ بخطوات ذاتِ وتيرة واحدة يعلوه الوقار، تقودُه قدماه في أزقّة ربض البيازين، فقد اعتادَ على قطع تلك الطريق منذ أن كان صغيرًا، مُمسكًا بيد أبيه، عادت به الذّكريات إلى الوراء، يوم كانَا يقطعان نفسَ الطريق إلى سوق المدينة، يخرجان من ربض البيازين ويسيران إلى عطارة والده التي تقبع في سوق المدينة، فقد كان والدُه عالمًا بصنوف النّباتات وعلم الأمراض، وكان ماهرًا في صناعة العقاقير الطبية، ورث هو عن أبيه ذلك العلم.

تذكّر مقولة والده التي قالها له ذاتَ يوم وهمَا يسيران في نفس الطريق وحُفرت في ذاكرته "يا بُني تَعلّم... فإنّ العلمَ مثل الصبحِ يأتي مِن بعد السواد، ولن ترقى أمّةٌ إلّا إذا كان الكتاب لها عمادًا، يا بُني إنّ العلم يرفع صاحبه في الدنيا والآخرة، يا بُني إنّ العلم هو حائط صدّ الجهل عن الأمم»، لكنْ كان للأيام رأي آخر، فالزمن لا يظلّ على حاله، والأيام تترى، ودوامُ الحالِ من المحال، وتأبى الحياة إلّا أن تضاعف له الحزن ليكون حزنيْن. مات أبوه كمدًا يومَ أن سَلّم أبو عبد الله الصّغير مدينة غرناطة لفرناندو وإيزابيلا، قلبُه الضعيف لم يتحمّل أن يرى غرناطة ترسفُ في أغلال الأسر، مات وتركه وحيدًا في بحر الحياة الهائج تتقاذفه الأمواج.

سارَ باتّجاه السوق يرى وجوهًا ليست منهم، يعلوها ظلامُ الجهل، قد أتى بها الملكان ليستوطنوا غرناطة، ويعملوا على معادلة التوزيع الجغرافي للسكان، ويتغلبوا على المسلمون، لقد عَدوْا على الأرض واغتصبوها من أصحابها، وشَرَوْها بثمن بخس لأنهم كانوا هم المشتري الوحيد لها، يحميهم القانونُ الجائر الذي لا يُجيز أن يبيع الغرناطي لأخيه المسلم، لقد عَدوْا على المسلم وهَجّروه من أرضه وأخذوها منه، وهكذا يصنع كلّ مَن يَعدوا على أرض المسلمين، يفرقهم ويأخذُ أرضهم، وتمّ تخصيص حي البيازين لهم ليهجّروهم من أرضهم فيه.

حملتْه الدروبُ مُتفكرًا فيما آلتْ إليه الأمور، وما حدث طيلة سبع سنوات، سار قاطعًا الدّروب، أتاه صوتٌ مألوف لديه فأخرجَه من حالة التَفكير التي كان غارقًا فيها:

- يا أبا محمد...

كان الصوتُ يأتي من دكان الوَرّاقين ممّا جعله يقف ليُجيب ذلك الصوت المعروف لديه، لنْ يُخطئ نبرةَ الصوت تلك مِن بين مئات الأصوات، كان أبو محمّد شابًّا يعلوه الوقار، ويُرى عليه أثرُ العلم، يُقبل عليه محمد ويستوقفه مُتسائلًا:

- كيف حالك يا أبا محمد؟

- نحمدُ الله على فضله، كيف حالُ الأيام معك يا صديق؟ وكيف حال تجارتك؟

- نحمدُ الله صاحبَ النعم التي تترى علينا رغم تقصيرنا، لقد انشغل الناس عن العلم، فمنذُ أن دخل القشتاليّون غرناطة ركدتْ تجارة الكتب، الناس همّهم الإقطاعيات وليس العلم.

كانت الابتسامةُ تعلو وجهَ محمد وهو يتحدّث بالرغمِ ما يعتصر قلبه من الألم، ممّا جعل عبدَ الرحمن يحاول التهوين على صديقه قائلًا:

- لا تحزن يا محمد، فهؤلاء بعيدونَ عن العلم، لا همّ لهم سوى الاستحواذ على الإقطاعيات، يتقاتلون فيما بينهم ويعْدو بعضهم على بعض من أجل الأموال والأراضي، دعْكَ من هؤلاء، أخبرني ماذا فعلتَ في الكتب التي أعطيتها لك لتنسخها، هل أتممتها؟

سارعَ محمد مُجيبًا:

- نعم، أيُعقل أن أتأخّر عليك في شيء يا أبا محمد؟!

انفرجتْ أساريرُ عبد الرحمن، وندّت منه ابتسامة جميلة وهو يتمتم:

- بشّرك اللهُ بالخير يا محمد، وهل أنهيتَ مُسند الإمام أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد الأندلسي القرطبي.

تنحنحَ محمد وقد بدا على ملامحه الاعتذار:

- لقد أوشكتُ على الانتهاء من نسْخِه، قريبًا سيكونُ بين يديك، أعلم شغفك بالقراءة يا أبا محمد.

ربّت عبد الرحمن على كتف محمد في رفق قائلًا:

- يا صديقي، إنّ أول ما نزلَ من كتاب ربنا اقرأ، وقد تعلّمنا من مشايخنا أنّ كلّ فعلِ أمرٍ في القرآن يقتضي الوجوبَ يُثاب فاعلُه ويَأثم تاركه، ودينٌ يبدأ بالقراءَة لهوَ دينٌ عظيم يا محمد.

قال محمد مُعتذرًا:

- يبدو أنّي أوقفتك كثيرًا وأطلت عليك يا أبا محمد، ولكنّي أردت أنْ أُخبرك أن كتبك التي أردت نسخها قد انتهت.

هتفَ عبد الرحمن قائلًا:

- لا عليك يا صديقي، ولا تنسَ موعدنا اليومَ بعد صلاة العصر عند شيخنا الصّقري في مسجد البيازين.

- إنْ شاء الله تجدني في الموعد هناك.

قالها وحانتْ منه التفاتة إلى دكّانه، فولّى عائدًا بعد أن استأذن من عبد الرحمن قائلًا:

- فلتأذنْ لي الآن؛ فأحدُهم أتى ليأخذ كتابه.

قالها عبد الرحمن واختفى بين الجموع، فانفجرَ عبد الرحمن ضاحكًا:

- محمّد هذا لا يتغيّر أبدًا، يكون معك ثمّ لا تجده في غضون لحظات، وبالرغم مِن هذا لديه إصرار وثباتٌ على فعل الشيء مهْما كلّفه الأمر، وهذا ما يعجبني فيه كثيرًا.

أكملَ عبد الرحمن طريقه إلى دكّانه يخشى التأخر، فلديه عملٌ يودّ إنجازه، قد نقع بعضَ الأعشاب من البارحة ليعدّ منه دواءً لمريض قد أتاه بالأمس.

قصرُ المورق

تناولَ الملك فرناندو كأسًا من النّبيذ الأحمر وأنصتَ لحديث إيزابيلا، لقد وجدت حلًّا لهذه المُعضلة، ممّا جعل فرناندو يصغي سمعَه، ويهتف بها قائلًا:

– مَن هو؟ وماذا تقصدين...؟

هتفتْ وفيضُ البِشْر يعلو وجهها:

– لقد غابَ عن تفكيرنا، لقد غفلنا عنه أو نسيناه في خضمّ تلك الأحداث، إنه أنسبُ مَن يكون في غرناطة الآن، تتوفّر فيه صفاتٌ قلّما تتواجد في شخص غيره، إنّه الأب فرانسيسكو خمنيس دي سيسنيروس مطران طليطلة، كاهن الاعتراف الخاصّ بي، أنسيته يا فرناندو، سنترك له مهمّة التنصير.

بدا الانزعاجُ على وجه فرناندو من تلك الفكرة، ممّا جعله يهتف:

– والمعاهدةُ التي بيننا وبين المسلمين!؟ سَيُعيّرنا ملوكُ أوروبا أننا لم نحفظ العهود.

علتْ ضحكاتها في أرجاء القاعة وهي تحاولُ إخراج الكلمات:

– ماذا قلت؟!، معاهدة....!!

قالتها وقد عادتْ ضحكاتها لتعلو أكثرَ وهي تردف قائلة:

– لا تشغلْ تفكيرك بالمعاهدة يا عزيزي، نحنُ سندفع بالكاردينال خمنيس وهو سيتحمّل تبعاتِ خرق معاهدةِ التّسليم، ونتنصّل نحن مِن تعيير ملوك

أوروبا لنا بأنّنا لم نستطعِ الحفاظ على بنود المعاهدة، وهكذا نحن نأخذُ المغنم وهو يأخذ المغرم.

أطالَ فرناندو التفكير، وظهرَ على قسماتِ وجهه عدمُ الرضا، فقد كان الأمرُ يحتاج إلى تروٍّ وبُعدِ نظر، فهو يعلم أنّ خمنيس ينحدرُ من أسرة وضيعةِ الشأن، متعطشًا للسلطة، ويسعى لها، ويُخفي ذلك خلفَ ردائه الكهنوتي، لذلك يجبُ أن يكون على حذر.

تطلّعت إليه إيزابيلا وقد بدا عليه عدمُ الرضا، وأطالَ التفكير، ممّا جعلها تتمتم:

- الأمرُ لا يحتاج إلى طول تفكير.

صمتَ للحظات ممّا جعلها تردف:

- قلت لك إنّه أنسبُ شخص في هذا الوقت، وهو مَن يجب أن يكون في غرناطة، سيخدم مصالحنا، سيضيّق على المسلمين، ويسعى لتنصيرهم، وبدوْرهم سيقاومون ويثورون، وربّما حدثت مناوشات بيننا وبينهم، وكثرة الضّغط تولّد الانفجار، وهكذا نضطرّهم ليكونوا أوّلَ مَن نقض المعاهدة، حينها يكون خرقُ المعاهدة على أساس ديني، فليس هناك مَن يستطيع انتقادنا في أرجاء المسيحية، وسنحقق مآربنا بموافقة البابوية في روما، وسنجدُ دعمًا من جانب البابا ألكسندر السادس، وسيكون نصرًا للنّصرانية، وهجومًا على الكفار الذين يهدّدون أمن الكنيسة والدين الكاثوليكي، وهنا تكمنُ أهمية الكاردينال خمنيس.

يبتسم فرناندو بدهاءٍ وهو يتجرّع كأسًا من النبيذ هاتفًا:

– سنرسل مَن يخبره أنّ عليه التوجه إلى غرناطة.

طالَ الحوار بين فرناندو وإيزابيلا عن الأمور التي يجب اتّخاذها حيال المسلمين في غرناطة، وماذا سيفعلون في قادمِ الأيام، وكيف لهم أن يضمّوا الغرناطيين إلى شعب الكنيسة.

***

إشبيلية

انتصفَ النهار وفرغتْ شوارعُ إشبيلية من المارة، سارَ غارسيا بصحبة خوسيه متجوّلين في رحابِ المدينة العتيقة، ولاحَ لهم من بعيد بناءٌ شاهق وقد ساقتهم إليه أقدامهم، برج حجريّ شاهق البنيان يعانقُ السماء ويحتلّ قلب المدينة، حيثما اتّجهت وجدته أمامك، فدارَ غارسيه حوله، فوجده مكوّنًا من جزأين؛ جزء سفليّ مضلع، عددُ أضلاعه اثنا عشر ضلعًا، مبنيّ من الصخور والأحجار، وجزء علويّ مثيل الجزء السفلي، ويَصغُرهُ في الحجم، ينتصبُ على ضفاف نهر الوادي الكبير، يقف شامخًا وشاهدًا على أنه كانت هنا حضارةٌ أضاءت العالم، تكسوه طبقةٌ من بلاطات خزفية قد طليت باللون الذهبي فتنعكسُ على صفحةِ الماء في الليلة القمرية، فيُخيّل للرائي أنّه قد طُليَ بالذهب، ومن ذلك أتى وصفُه ببرج الذهب. توقف غارسيا مندهشًا من عظمة المبنى، هذا البرج الذي ظلّ شامخًا في وجه الحصار القشتالي لأشبيلية.

لاحتْ أماراتُ التّعجب، ووقف غارسيا مبهوتًا أمامَ تلك التحفة المعمارية، لاحظ خوسيه كَمّ الاندهاش فهتف قائلًا:

- أتدري يا غارسيا أنّ برج الذهب يمكنك أن تصعدَ إلى قمّته وأنت تمتطي صهوة جوادك؟

صاحَ غارسيا مندهشًا:

- يا لعظمةَ ذلك البناء!!

التفتَ غارسيا إلى خوسيه، وأضاف قائلًا:

– يبدو أنّ لذلك البرج قصّة، ويبدو أنّك قد اطّلعت عليها.

انفرجتْ أسارير خوسيه وتبسّم قائلًا:

– أنتَ هكذا دائمًا يا غارسيا تريد أن تعلم كلّ شيء، حسنًا سأخبرك بها، فلتستمع إذًا. برج الذهب تمّ تشييده من قِبل آخرِ أمراء الموحدين أبي العلاء إدريس الكبير في سنة ٦١٧هـ / ١٢٢١م لحمايته من هجماتِ أجدادنا على إشبيلية، كان البرج بمثابة نقطة مراقبة، ولديْه مهمّة تتمثل في إغلاق مدخل الميناء عن طريق سلسلةٍ حديدية ضخمة كانت متدلّية عبرَ النّهر مثبتٌ طرفها على الجانب الآخر، كان الغرضُ منه السيطرةَ على حركة مرور السفن التي تعبر في نهر الوادي الكبير.

أتعلمُ يا غارسيًا أنّ أجدادنا لم يستطيعوا إسقاط المدينة، لكنّها سقطت بأيدي أعدائنا أنفسهم.

هتفَ غارسيا متعجبًا:

– لتكمل يا خوسيه، يبدو أنّ الأمر شيق فعلًا، كيف إذًا سقطت بأيديهم؟

أردفَ خوسيه قائلًا:

– الخيانة يا غارسيا، الخيانة تُسقط الأمم.

زوى غارسيا ما بين حاجبيه قائلًا:

– ألم تعلم أنّه لولا خيانةُ عمرو بن الجدّ للمدينة يوم أن رضيَ أن يكون تابعًا لملك قشتالة فرناندو الثالث؛ ما سقطت تلك المدينة وقتها؟! أتعلم مَن كان يفرض الحصارَ مع الملك بقواته؟ لنْ تصدق مَن؟!

بدا الامتعاضُ على وجه غارسيا مِن طريقة خوسيه في عرض الأحداث، فهتف صارخًا:

– دعْك من أسلوبك هذا يا خوسيه، ولتكمل دونَ استخدام طريقتك الظريفة هذه.

انفرجتْ أسارير خوسيه، وندّت عنه ضحكة عالية وهو يهتف:

– لا تغضبْ يا صديقي سأخبرك، لقد كان ابنُ الأحمر ملك غرناطة ضمن قوات الملك فرناندو الثالث، وضمنَ القوات المحاصرة إشبيلية، أرأيت كيف تفعل الخيانة؟!

لقد سيطرَ أسطولنا على مياهِ نهر الوادي الكبير؛ ليمنع ورود الإمدادات والمؤن إلى إشبيلية من طريق البحر، وكان وجودُ ابن الأحمر بقواته إلى جانب قواتنا المحاصرة للمدينة.

ومضى على الحصار شهورٌ طويلة، وإشبيلية تزدادُ إصرارًا على المقاومة والثبات والتصدّي لقواتنا وردّهم، حتّى عانى أهلُ المدينة ألمَ الجوع ومتاعب الحصار، ولم تفلحْ محاولات علمائهم في بثّ الروح وإعادة الثقة إلى النفوس الواهنة والأبدان الناحلة التي هدّها الجوعُ وأضناها الحرمان، وأنهكها القتال المستمر طوالَ خمسة عشر شهرًا، دونَ أن تأخذ قسطًا من الراحة، ولم تتحرك

الدول القريبة لنجدة إشبيلية؛ فالدولةُ الموحِّدية مشغولة بمحاربة بني مرين، والدولة الحفصية لم تُلقِ بالًا إلى صرخاتِ المحاصَرين، ودولة بني الأحمر يشترك أميرها في حصار إخوانه المسلمين؛ لكلّ هذا غاضت الآمالُ في النفوس، وامتلك اليأسُ القلوب، وفقدت إشبيلية أي بارقة للإنجاد تخرجها ممّا هي فيه من ضيق وشدّة.

ولم يجدْ زعماء إشبيلية مفرًّا من التسليم، وحاولوا أن يخفّفوا من وقع المصيبة، فعرضوا تسليمَ ثلث المدينة، فرفض فرناندو الثالث هذا العرض، فحاولوا مرّة أخرى بتسليم نصف المدينة، فأبى فرناندو الثالث إلّا أن تُسلم المدينة كاملة، فكانَ له ما أراد.

وانتهتِ المفاوضات بين الفريقين على أن تُسلم المدينة كاملة سليمة لا يُهدم من صروحِها شيء، وأنْ يغادرها سكانها، معَ السّماح لهم بأن يحملوا كلّ أمتعتهم من مالٍ وسلاح، أرأيت يا غارسيا كيف تفعل الخيانة؟!!

ندّت ابتسامةٌ عن غارسيا، وهتف قائلًا:

– مثلما فعلنا معَ غرناطة، أرأيت... إنّ التاريخ يعيد نفسه يا صديقي، وبالرغم من ذلك فهؤلاء الأندلسيون لم يتعلّموا شيئًا منه.

– يبدو أنّك بدأت تفهم يا غارسيا.

هتفَ بها خوسيه وهبّ واقفًا، وتبعه غارسيا وقد أردف خوسيه قائلًا:

– أتعلمُ يا غارسيا أنّ أجدادنا لم يغيّروا اسمَ البرج، لأنّه ظلّ شامخًا في وجه الحصار، متحدّيًا جيوشنا، وقد استغلّه الملك بيدرو الأول كخزانة لكنوزه من الذهب.

أعجبَ غارسيا بتلك المعلوماتِ التاريخية، وبدا على وجهِه الرضا قائلًا:

– هذا شيء عظيم، ورائع يا خوسيه.

سارا سويًّا بعد أن قضى غارسيا وقتًا يستمعُ لخوسيه عن حصار إشبيلية وعن برج الذّهب، ومن بعيدٍ لاحت له كاتدرائية إشبيلية، تلك التحفة المعمارية الخالدة، التي يقف في مقدمتها برجُ الجرس يعانق السماء، (الخيرالدة) أطولُ برجٍ شاهده في حياته، الذي كان أطولَ برج في العالم في زمانه، حيث بلغ ارتفاعه ما يقارب سبعًا وتسعين مترًا، كان فيما مضى مئذنةَ مسجد إشبيلية الكبير قبل أن يتمّ تحويلها إلى كاتدرائية بعد سقوط إشبيلية في عهد فرناندو الثالث، بالرّغم من جدرانها وزخارفها التي تُشبه تلك الزخارف التي تزيّن الحمراء، والتي توحي أنّها كانت يومًا ما للمسلمين.

أرادَ غارسيا أن يعرف المزيدَ عن تلك التحفة المعمارية وعن برج الجرس وكيف استردها أجدادُه، فالتفت ناحية خوسيه قائلًا:

– حدّثني عن برج الجرس، و.......

قاطعه خوسيه:

– أعلمُ ما يدور في رأسك، وماذا تريد، حسنًا.. سأقصّ عليك خبر تلك التحفة المعمارية، لكنْ دعنا الآن نعودُ إلى القصر لتنال قسطًا من الراحة قبل أن تعود إلى غرناطة.

***

على أعتاب غرناطة

أتى الخريفُ قاسيًا هذا العام، لم تستطع الأوراق التشبثَ بأغصانها، فعصفت بها الرياح بعيدًا، ولكنّ خريف غرناَطة كان أقسى وأشدّ، لقد خيّم الظلام على تلك المدينة التي كانت تتهيّأ لاستقبالِ القادم الذي سيذيقها أشدَّ العذاب، فقد انطلقَ الرّكب من طليطلة.

خيولٌ سائرة ترفعها النّجادُ وتحطّها الوهاد، جنودٌ يرفعون البيارقَ والأعلام القشتالية يتقدّمون الركب، ومِن خلفهم يأتي ثُلة من الرّهبان الفرنسيسكان يمتطون الخيول، يتسابق الركبُ والغروب أيّهما يخيّم بظلامه على المدينة أسرع، وكان الركبُ أسرعهم، يحمل في طيّاته كلّ ألوان العذاب.

كانَ من بين الركب مَن يتطلّع إلى غرناطة التي لاحت من بعيدٍ بعينين يملؤهما الحقد والكراهية، ليلتفتَ ناحية مساعده سالثيدو مُخاطبًا:

- سيكون لدينا عملٌ كثير في غرناطة، توجد خرافٌ ضالّة علينا ردُّها إلى حظيرة الرب.

يلتفتُ سالثيدو ناحية سيده الكاردينال:

- يبدو أنّهم خرافٌ كثيرة يا صاحبَ القداسة، ولكنّنا عَهِدناك دائمًا تسعى لخلاصهم من الخطيئة التي عَلقت بأرواحهم.

بابتسامةٍ خبيثة تعلو وجهَ الكاردينال خمنيس:

- سنرى ماذا ستفعل تلك المدينة في قادم الأيام!، هل ستقاوم أم تستسلم مثلما استسلمَ المارانوس؟

- يا صاحبَ القداسة، لقد اقتربنا من غرناطة، وإنّي أرى خيولًا تنهب الأرض نهبًا تقتربُ منّا حاملةً الرايات القشتالية، لقد أرسلوا مَن يستقبلنا على حدود غرناطة.

تقتربُ الخيول أكثرَ فأكثر من الركب، فارسٌ يرتدي زيّ الحرب ينزل من على صهوة جواده فيخرّ على الأرض جاثيًا على ركبتيه مُقدّمًا التحية، وكذلك يفعل باقي الجنود:

- سيدي الكاردينال، لقد أتينا لاستقبالكم على أعتابِ غرناطة بناءً على أمر سيدي بلاسكو دي باريو؛ مفوّض الشرطة.

بنظراتٍ ثاقبة يتفحّص الكاردينال الفرسان، ثمّ يشير لهم بالنهوض قائلًا:

- فليحفظكُم الربّ على ما تقدّمون لخدمة الكاثوليكية.

يعتلي الفرسان جيادهم، ثمّ يحيطون بالموكبِ كما هي الخطّة المتفق عليها، ثمّ يبدأ الركبُ بالتحرك ليدخل المدينة قبلَ حلولَ الظلام، وقد أرخى الركبُ العنان للخيول التي راحت تنهب الأرض نهبًا.

***

قصرُ الحمراء

كان الكونت تنديا يقطعُ الأرض بخطواته، يتبعُه مفوّض الشرطة بلاسكو دي باريو ليطمئنّ على استعدادات الاحتفال، وقد التفتَ الكونت إلى الوراء مخاطبًا مفوض الشرطة:

- يجبُ أن يليقَ الاحتفال بقداسة الكاردينال خمنيس دي سيسنيروس، أنت تعلم أنه أتى بأمر من جلالة الملكة إيزابيلا، لذلك لنْ أسمح بحدوث الأخطاء، ويجب تأمينٌ قداسته، أنتَ المسئول أمامي يا بلاسكو.

يزيد مفوّض الشرطة من خطواته ليلحق بالكونت تنديا هاتفًا:

- سيدي كلّ شيء سيكون كما أردتَ تمامًا، فقد أرسلت فرقة من الجنود لاستقباله على حدود المدينة.

انفرجتْ أسارير الكونت تنديا مستبشرًا، وهو يتساءل:

- هل حضرَ كلّ المدعوين من وجهاء المدينة؟

- لقد جاءوا جميعًا يا سيدي.

مِن بعيدٍ لاحَ ذلك القادم نحوهما في عباءته الحريرية المزركشة بنقوشات ذهبية حاملًا في يده صليبًا، وممسكًا بعصا يتوكّأ عليها، يسير ببطء، فقد بلغَ من العمر أرذله، ممّا جعلَ مفوّض الشرطة يهتف:

- سيدي الكونت، إنّ قداسة المطران إيرناندو دي طلبيرة قادمٌ نحونا.

أسرعَ الكونت تنديا متّجهًا نحو المطران، يتبعه مفوّض الشرطة ليمسك بيد المطران ويقبّلها، وكذلك فعل بلاسكو مثله، هتفَ الكونت في احترام:

- قداسة المطران، ألا أرسلت إلينا لنأتيك.

انفرجتْ أسارير المطران الذي تمتم قائلًا:

- دعكَ من هذا أيها الكونت، هل انتهيتما من إتمامِ استعدادات مراسم الاستقبال؟

أجابه الكونت تنديا:

- نعم يا سيدي المطران.

قطعَ حديثهما دقاتُ الطبول مُعلنةً دخول الموكب قصر الحمراء، فارتفعت نغمات الجوقة الموسيقية، وقد تهادتِ الخيول على نغمات الجوقة وقرعات الطبول، والركب يحطّ في قصرِ الحمراء، كان في استقبال الكاردينال جمعٌ غفير من القشتاليّين من وجهاء القوم، وممّن تنصّر من أهل غرناطة.

نزل من على حصانه مرتديًا حلّةً من الحرير الأحمر الموشّى بخيوط ذهبية اللون مُمسكًا بصليبٍ من الذهب، نحيف الجسم حليقُ الرأس معقوفُ الأنف، تطلع الكاردينال خمنيس في الجمْع الغفير الذي أتى لاستقباله وتقديمِ التّهنئة له بقدومه إلى غرناطة، سار بخطواتٍ ذات وتيرة واحدةٍ نحو المجلسَ الذي أُعد له.

سارَ المطران إيرناندو دي طلبيرة بخطواته الضّعيفة نحو الكاردينال آخذًا بيده ليقبلها قائلًا:

– لقد أضأت غرناطة بقدوم قداستكم إليها.

يرمقُه الكاردينال خميس بنظراتٍ تحمل في طيّاتها الكثير قائلًا:

– لمْ تتغيّر كثيرًا أيها المطران، يبدو أنّ اللينَ يصحبك في كلّ شيء، في مشيتك وكلّ أمور حياتك.

توافدَ الجمع لتقديم التهنئة، وبدأ بعدها حفلٌ صاخب في قصر الحمراء، حفل كان بداية النّهاية لغرناطة، طالَ أمدُ الاحتفال إلى منتصف الليل، وانصرف الجميعُ بعد تقديم التّهنئة للكاردينال.

وبعدَ انتهاء الاحتفال فوجئ الكونت تنديا والمطران إيرناندو دي طلبيرة بقدوم سالثيدو مساعدِ الكاردينال نحوهما، والذي قدّم التحية لهما قائلًا:

– سيدي الكاردينال يريدكما في اجتماعٍ مهمّ، وهو في انتظاركما الآن.

يلتفتُ الكونت تنديا إلى المطران إيرناندو مُتعجّبًا من ذلك الاجتماع في منتصف الليل، لكنْ ليس أمامهم سوى السّمع والطاعة لأمر الكاردينال خمنيس.

***

مسجد البيازين

شيخٌ يعلوه الوقارُ، غزا الشيبُ لحيته فكساها نورًا، يجلس في محرابه يعقد التسبيح على يديه بعدَ أن أنهى صلاته في رحابِ المسجد، وقد انصرفَ الناس بعد أداء الفريضة، في حين كان عبدُ الرحمن يَجلس في طرف المسجد يعلوه الحزن، وكأنّ شيئًا ثقيلًا يحمله فوقَ كتفيه وقد أضناه المَسير، فيشير إليه أنْ أقبل يا بُني، فينهض من مجلسه ويتوجّه إليه قائلًا:

- كيف حالُ شيخنا الصقري؟

- نحمدُ الله على نعمائه، ونسأله أن يكشفَ عنّا بلاءه، إنّه أرحم بنا منا.

صمتَ الشيخ ليردفَ بعدها مُتسائلًا:

- ما لي أراك حزينًا يا عبدَ الرحمن وكأنّك تحمل همًّا تنوء عن حمله الجبال؟

أطرقَ عبد الرحمن برأسه لحظات، ثمّ قال:

- يا سيدي، لقد أظلمت علينا غرناطة، وخبَا ذلك الضوء الذي أضاء الأندلس على مدى ثمانية قرون، لقد مضتْ سبع سنوات منذ دخل القشتاليّون غرناطة، ومنذ ذلك الحين والقشاتلة لا همّ لهم سوى تنصيرنا، أنتَ ترى حاكم المدينة الكونت تنديا والمطران إيرناندو دي طلبيرة لا همّ لهم سوي تنصير البسطاء من عامة الشّعب، يتقرّبون منّا، والقساوسة يتعلّمون

لغتنا العربية من أجل أن نميل إليهم، وعلماؤنا وفقهاؤنا تركونا نُقاسي الأهوال، وآثروا السلامة، وعبروا إلى عدوة المغرب، أخشى يا سيدي أن ترحلوا وتتركونا، فحالنا لا يخفى عليكم.

قال الشيخُ وقد بدتْ عليه أمارات الاندهاش:

- لماذا تقول ذلك يا بُني؟!، لن أترككم أبدًا، أَيُعقل أنْ أترك ذلك الثغر الذي وقفنا عليه، لقد أخطأ علماءُ الأندلس عندما تركوا غرناطة تقاوم القشتاليّين وحدها، غفرَ الله لهم، هُم معذورون يا بني، اجتهدوا فأخطئوا، مَن للأندلس إذا تركناها ورحلنا؟!، مَن للشّعب يُبصره في دينه؟!، مَن يقف في وجه السلطات الدينية القشتاليّة التي تسعى جاهدةً للإجهاز على ما كلّ هو إسلامي؟!

في تلك الأثناء، دخل مِن باب المسجد شابّ قد ناهزَ الثلاثين من عمره بهي الطلعة يحملُ في يده بعض الكتب، يلقي التحية ثمّ يهوي على يد الشيخ الصقري فيقبّلها، ثمّ يشرع في سؤال الشيخ عن حاله قائلًا:

- كيف حالُ فقيه غرناطة؟ .

- الحمدُ لله بخير حال، أرى أنفاسَك متسارعة يا محمد، هل من خطب يا بني؟

أجابَ محمد لاهثًا تكاد أنفاسه تنقطع:

- كنت قادمًا إليكم، وأثناء سيْري رأيت موكبًا يحمل الأعلام القشتالية ومجموعة من الرّهبان الفرنسيسكان يحملون أعلامًا حمراء يحيطون بشخص

ويسيرون إلى قصرِ الحمراء، يتقدّمهم فرقة من جنود الكونت تنديا، فأردت معرفة ذلك الشخص الذي يدور بعينيه في الناس، ويكاد يتطاير منهم الشّرر وكأنه شيطان، فأخبرني أحدُهم من يكون.

اتّجهت العيون نحو محمد في ترقب، تُرى مَن ذلك القادم؟، ومَن يرسل له الحاكم العسكري الكونت تنديا فرقةً من الجنود لاستقباله خارج حدود غرناطة؟!، يبدو أنّه ذو مكانةٍ في البلاط الملكي، ولكن لماذا أتى إلى غرناطة؟

أضافَ محمد قائلًا وكأنّه يُجيب على تلك التساؤلات التي كانت تدور في عقولهم:

- إنّه الكاردينال فرانسيسكو دي سيسنيروس دي خمنيس.

نطقَ محمد تلك العبارة فاكفهرّ وجهُ الشيخ الصقري، وأطبق الصمت على المكان، ولفّه الحزنُ من كلّ جوانبه، فأضحى الجالسون كأنّ على رؤوسهم الطير من هول الخبر، ولم يقطعْ ذلك الصمت الذي خيّم على المكان سوى الشيخ الصقري الذي تمتم قائلًا:

- خمنيس إذًا..؟!!، لا حولَ ولا قوة إلّا بالله، بقدوم خمنيس إلى غرناطة سنُلاقي أهوالًا جِسامًا، بقدومه إلى هنا ستزداد الأحوال سوءًا على سوء.

هتفَ عبد الرحمن مُستفسرًا من شيخه:

- هل تعرفه يا سيدي؟، وهل ينتظرنا أسوأ ممّا نحن فيه!؟

- نعم يا بني، فرانسيسكو خمنيس دي سيسنيروس كاهنُ الاعتراف لإيزابيلا، راهب من الفرنسيسكان ينحدرُ من أسرة وضيعة، يسعى للسّلطة

ومتعطشًا لها، ويخفي ذلك خلفَ ردائه الكهنوتي، ومظاهرِ التقوى والتعصب الكاثوليكي، ويشغل الآن منصبَ مطران طليطلة، وذاكَ منصبٌ بعد الملكين مباشرة، ويرأس الديوان المقدّس، ويعتبر أحدَ المسئولين عن المحارق التي حدثت لليهود، ومجيئه إلى غرناطة ليس له إلّا تفسيرٌ واحد؛ أنّهم يريدون أن يعيدوا ما فعلوه في إشبيلية وطليطلة من محاكم التّحقيق، ويريدون أن يضيّقوا علينا غرناطة، وحينها لن يكونَ أمامنا سَوى النفي أو التنصير، خياران كلاهما مرّ، الدين والوطن في قلوبنا كجناحي الطائر لا يستطيع التحليق إذا فقد أحدهما.

لحظاتٌ من الصمت الثقيل، وأكمل الشيخ حديثه:

– لقد زاحمنا القشتاليّون أولًا على الأرض، ثمّ لم يلبثوا إلّا قليلًا حتى زاحمونا في أرزاقنا ومصادر عيشنا، وما بقيَ لهم إلّا أن يزاحمونا على الدين والتاريخ واللغة، وبقدوم خمنيس إلى غرناطة قد بدأت المزاحمة على الدين، وخمنيس يسعى ليحقّق أمجاده باضطهادنا، مثلما حقّق توركيمادا أمجاده باضطهاد اليهود من قبل.

طاف محمد بعينيه في وجْه شيخه الذي قد غزا الشيبُ لحيته ممّا زاده بهاءً ونورًا، ليلمح مسحةً من حزن على محيّاه فيخاطبه قائلًا:

– شيخي، إنّهم يقيمون احتفالًا كبيرًا في أبهاء قصر الحمراء لاستقباله، وقد شاهدت فرقًا من الشرطة تجوس المدينة لتأمين ذلك الموكب.

تمتمَ الشيخ مُقلبًا بصرَه في عبد الرحمن ومحمد:

- يا بنيّ رغم استيلائهم على المدينة، مازالوا يخشون أمرنا، يعلمون أن المسلم لا يرضخُ لعدوّه وإن كلّفه ذلك حياته، يا بنيّ إنّ غرناطة كان يمكنها أن تصمد على الحصار، وكانت ستنتصر في النهاية، والقشتاليّون أنفسهم يعلمون ذلك، ولكن ملوكنا آثروا السّلامة، وابتلانا اللهُ في الفترة الأخيرة بصراعات داخلية بين بني الأحمر، فتفرّقنا واتّحد أعدائنا، حين اقتتل بنو الأحمر فيما بينهم متناسين قول ربّنا عزّ وجلّ: ﴿ **وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ** ﴾، فالفُرقة داء ليس له دواء إلّا الاعتصام بالله، فقد وسِد الأمرُ لغير أهله فكانت الهزيمة، إنّ الهزيمة لم تأتِ من قوة عدوّنا، لقد أتت من ضعف أنفسنا وملكنا خائرِ العزيمة الذي آثر السّلامةَ على أن يخوض أتونَ الحرب دفاعًا عن الإسلام وعن غرناطة، فسلمها لقمةً سهلة للملكيْن بدون أدنى مقاومة، وترك الشعبَ المسلم لمصيره وعبر إلى عدوة المغرب، ولم يكنْ بكاؤه عندما غادرَ غرناطة على مجد الإسلام الذي كان سببًا في إضاعته؛ لقد كان بكاؤه على مجدِه الشّخصي الذي سُلب منه، وقد صدق الشاعرُ في قوله:

يا ابن الحميراء انتفضت من الأسى

تبكي على الحمـــراء لا الإســـلام

ضيّعـــت ملك جدودنا بسذاجة

ووثقت في ذئـــب على الأغنـــام

فرّطت في الإســـلام في غرناطــة

حصـــن الحصـون يُداس بالأقدام

هتفَ محمد مُعقبًا:

– إنّها تنطبق على ذلك الملك الضّعيف الذي تركنا نقاسى الويلات وآثر الراحة.

دارَ في خلد عبد الرحمن سؤالٌ فطرحه على الشيخ الصقري قائلًا:

– لماذا استسلمنا!؟ كان يمكننا المقاومة.

– لقد ناضلنا ودافعنا ما أمكننا، لم نستسلم إلّا بعد أن تلاشت آخر آمالنا في الثبات، وماذا يستطيع المدنيّون المسالمون أمثالنا من أهل الحرف والتجار ورجال العلم وأوساط الناس أن يفعلوا؟!، وقد رأينا تخاذلَ الملك وقادته عن الدفاع عن المدينة، وقد رضيَ بوثيقة تمّ نقضها قبل أن يجفّ حبرها، لم يكن يدري أنّ بعد التسليم لا عهودَ ولا مواثيق، لم يكن العصر عصرَ مواثيق بين غالب ومغلوب، ورحمَ الله أجدادنا أصحاب موسى وطارق بن زياد، ما قطعوا على أنفسهم عهدًا لبلدٍ استسلم إلّا رعوه وحفظوه، وما دخل إنسانٌ في ذمّتهم إلّا حفظوه وصانوه في أهله ودينه وماله، وظلّ إنسانًا له كرامته، هذا ما فعلناه وذلك ما فعلوه، ونحن بنو الإسلام نجاهد في ميادينه، لا يزدهينا نصرٌ، ولا تحطمنا هزيمة، لأنّ الدنيا إقبال وإدبار.

أوغلَ الليل في المضي، فانفضّ المجلس الذي جمعهم، فقام كلّ منهم إلى بيته.

***

الكاتدرائية

قاعةٌ ممتدّة الأرجاء، يتوسّطها طاولةٌ عليها شموعٌ لم تُضاء كلّها، ممّا زاد من رهبة المكان. كان الكاردينال يجلس على كرسيّه الوثير، يُمسك مجموعة من الأوراق بين يديه يقلّب فيها، خلفه يقبع تمثالٌ للسيدة العذراء، يتراقص الظلّ على الحائط مع تراقص ذبابة الشّمعة يمنة ويسْرة، وقد اكتنفه الغموضُ الذي يحاول الكاردينال دائمًا أن يحيط به نفسَه، يزيدُ من رهبته في قلوبِ الناس، غامضًا في كلّ أفعاله، لديه حلمٌ يسعى لتحقيقه منذُ أن تولى أعلى منصب ديني في قشتالة وأرغوان، لقد قطعَ على نفسه عهدًا منذ كان راهبًا صغيرًا في مدرسة رهبان الفرنسيسكان أنْ يعمل على تطهير الجزيرة الأيبرية من العربِ الذين احتلّوها، وإذا لم يتركوا أرضَهم فلديه خطةٌ تقتلعهم من جذورهم، كتب في الأوراق التي بين يديه بنودَ مشروعه الذي يسعى لتحقيقه منذ زمن بعيد.

طافتْ به الذكريات، تذكّر حاله يومَ أن تخرج من جامعة سلمنك بعد دراسته للقانون، يومَها كان لديه حلمٌ ليحصل على منصبٍ ديني، لكنّه لم يفلح، يتذكّر اليوم جيدًا، يوم حُكمَ عليه بالسجن لتحدّيه لرؤسائه، يومَ استولى على وظيفة كان أحدُ رؤسائه قد وعد بها شخصًا غيره، يومَها قرّر أن ينسحب من حياةِ الناس، وترك لهم شئونهم الدنيوية، وقرّر الانضمامَ لرهبانية الفرنسيسكان، وعاش في الغابات القريبة من طليطلة في صومعة من القشّ تكفي بالكاد ليتمدّد فيها، تذكر يومَ كان لا يسدّ رمقه إلّا النباتات والحشائش،

حتى ضحكتْ له الأيام يومَ أن اختارته الملكة إيزابيلا عام ١٤٩٢م ليكون كاهنَ الاعتراف الخاصّ بها، كان في عامِه السّادس والخمسين يوم وصل إلى البلاط الملكي، شاحب الوجه، هزيلًا كالجيفة، ليس عليه إلّا رداءٌ بالٍ، ينتعل صندلًا قد عفا عليه الزمن، معقوف الأنف، حليق الرأس، فارع الطول، هزيل الجسد، كانت له أهداف سياسية يسعى وراءها، كان يرى أنّ مصالحه تسير لتحقّق مصالح الرب، صنعت منه الأيامُ كاهنًا متعصّبًا يبطش بكلّ شخصٍ يقف أمام طموحاته.

هبّ واقفًا وأطالَ النّظر إلى ملابسه الحريرية الموشّاة بخيوط الذهب، وأمسك بصليبه الذّهبي، واتّجه ناحية التمثال المثبّت على الحائط، وهوى على ركبتيه وهتف:

- أقسمُ يا غرناطة، لأسقينّك من نفسِ الكأس الذي شربت منه، لأجعلنّ كلّ أيامك ظلامًا، فتتمنّين الموت ولا تجدِينه.

دوّت طرقاتٌ على الباب، فنهضَ وسوّى ملابسه وعادَ إلى مجلسه، وأمسك بالأوراق التي أمامَه ثانية قبل أن يهتف في وقار:

- تفضّل يا سالثيدو.

لحظاتٌ ودفع مساعدَه الباب، ودلف إلى الداخل وهو يتمتم:

- سيّدي الكاردينال، لقد أتى كلّ من قداسة المطران وحاكم المدينة.

نحّى الكاردينال الأوراقَ التي بين يديه جانبًا وهو يشير بيدِه لسالثيدو أن يدخلهما، وما هي إلّا لحظات ويدلف إلى الداخل المطران طلبيرة يتبعُه حاكم

المدينة الكونت تنديا، فيشيرُ لهما بالجلوس، وقد همّ المطران طلبيرة بالسؤال عن سببِ اجتماعهم في ذلك الوقتِ المتأخّر من الليل، إلّا أنّ الكاردينال يشير إليه بيده إشارةً فهمَها المطران فآثر الصّمت، وقد بدأ الكاردينال بالحديث قائلًا:

- أعلمُ أنّ ثمة سؤالًا يدور في عقولكم، لماذا في هذا الوقت؟!، وسأجيبكم عليه الآن.

يسوّي من جلسته، ويلتقط الأوراق التي نحّاها جانبًا وهو يردف:

- لقد استردّ الملكان غرناطة منذ سبعِ سنوات، والغرناطيّون إلى الآن يحلمون بطردنا ثانية من غرناطة، وأنتم تعلمون أنّهم أمّة لا تموت، هم عنيدون جدًّا ولا يستسلمون، أنتم تستغربون قولي هذا لكنّها الحقيقة، ويجب أن نكون صادقين مع أنفسنا ونعرف مواطن قوة خصومنا.

صمتَ الكاردينال قليلا، ثمّ هتف قائلًا وهو يوجّه إليهما نظرات ثاقبة كادت تهوي معها قلوبهم:

- ماذا فعلتم أنتم طيلةَ سبعِ سنوات قضيتموها في غرناطة، أريد أنْ أرى نتائج مساعيكم في ضمّ المسلمِين إلى المسيحية، أريد بيانًا تفصيليًّا بنشاطكم في غرناطة، وعدد المسلمين الذين تمكّنت أنت ومعاونيك من تعميدهم.

التفتَ طلبيرة إلى الكونت تنديا، ونظرته تحملُ الكثير، وكأنه أراد أنْ يقول ألم أخبرك أنّ الاجتماع سيكون من أجل هذا؟!، كان وكأنّه على علم بخبايا الكاردينال، فأحضر معه بعضَ الأوراق، ومدّ المطران طلبيرة لفافةً من الأوراق ناحية الكاردينال الذي هتف قائلًا:

- ما هذا يا قداسة المطران؟

- سيّدي الكاردينال، لقد سطّرت كلّ شيء تحتاجه في تلك الأوراق، وما توصلنا إليه في تنصير أهل غرناطة منذُ أن وطأت أقدامنا هذه المدينة، وما سنفعله في قادمِ الأيام، وزيّلتها بأسماء الذين تنصروا من أهل غرناطة.

مدّ الكاردينال يدَه مُلتقطًا اللفافة، فقام المطران طلبيرة فناولها للكاردينال، وفضّ الكاردينال الأوراق وأمعنَ النظر فيها، واستهلّ في قراءتها بضع دقائق تغير وجهه خلالَها واعتلاه الغضب، فقد مرّ لتوّه على جملة أثارت غضبه «**وبدأنا في ترجمة الكتاب المقدّس إلى اللغة العربية، ووجّهنا القسس والرهبان لتعلم العربية ومدارسة الدين الإسلامي من أجل محاورةِ المسلمين وإقناعهم بالتنصّر ولنتقرب إليهم**»، تثوّره الغضب وألقى الأوراق راسمًا على نفسه الصليب، وقد مدّ يدَه ليلتقط الصليب الذي أمامه وطأطأ برأسه قائلًا:

- فليغفرْ لنا الربّ خطايانا، كيف تجرؤ على فعل هذا أيّها المطران؟!، أنت فعلت كمَن ألقى اللآلئ أمامَ الخنازير، كيف تسوّل لك نفسك أن تُعرّب الكتاب المقدّس؟!، تلك لغةٌ نجسة، ألم يكفك ما فعلتَ من تعريب بعض كتبنا إلى تلك اللغة النجسة؟!

ارتعدتِ الفرائص، وتصبّب العرق رغم برودة الجو، فلم يُرَ الكاردينال من قبل في حالة مِن الغضب تشبهُ ما هو عليه اليوم، كان سالثيدو يقف خلفَ الكاردينال، فأراد أن يُلطف من حدّة الغضب الذي اعتلى الكاردينال فتمتم قائلًا:

- معذرةً على المقاطعة قداستك، إنّ سيدي المطران طلبيرة عندما قام بتعريب تلك الكتب كانت له وجهة نظر، فدعْنا نسمع منه، لماذا أقدَم على فعل كهذا؟!

أرادَ المطران أن يخرجَ من سخط الكاردينال فبدأ في سردِ الأسباب التي جعلته يُقدم على فعله:

- سيدي الكاردينال، لقد أقدمنا على فعلنا هذا وكانت لنا وجهةُ نظر، أردنا بفعلنا هذا أنْ نتقرّب من أهل غرناطة، ونعاملهم بالرفق واللين، وقد انقطعت صلتهم بالعالم الإسلامي، عندها تكون مهمّتنا سهلةً بإقناعهم بالتنصير، أعلم أنها طريقة بطيئة لكنّها مؤكّدة، وتحقّق نتائج مذهلة، وقد كتبتُ في آخر ورقة أسماء مَن تنصّر مِن أهل غرناطة.

خمدتْ نارُ الغضب التي تثورت الكاردينال، فالتقط الأوراق التي ألقاها قبل قليل ليكمل قراءتها، لكنه مازال غير مقتنع بوجهة نظر المطران التي تتعارض مع مشروعه الذي يسعى لتحقيقه، مما جعله يتمتم قائلًا:

- أرى أنّك قمت بتسجيل أسماء مَن تنصّر، تلك نتائج استعمال الرفق واللين، أرأيت.. لقد تنصّر عددٌ قليل من الناس يعدّون على أصابع اليد.

بدأ الكاردينال في قراءة أسماء مَن تنصّر من المسلمين من الأوراق التي بين يديه:

- ثريا زوجة السّلطان أبي الحسن، تنصّرت وصارت الدونا إليزابيث دي سوليث.

سعد ابن السّلطان أبي الحسن تنصّر، وصار الدوق فرناندو دي جرنادا.

نصر ابن السّلطان أبي الحسن تنصّر، وصار الدون خوان دي جرنادا.

يحيى النيار حاكمُ ألمرية وزوجُه وابنُه علي تنصّروا، وصار ابنُه يدعى الدون ألونس دي جرنادا فينجاس.

وتنصّر الوزير أبو القاسم بن رضوان بنغيش، وجميعُ عائلته.

وتنصّر آل الثغري، ورئيسهم حامد الثغري، وتسمّى جونثالفو فرياننديث ثاخرى.

وتنصّر الوزير يوسف بن كماشة، وترهبنَ ودخلَ الدير، واعتزل الحياة.

راجعَ الكاردينال بقيّة الأوراق وهو يدوّن بعضَ الملاحظات والأوامر، دقائق وأنهى بقية الأوراق التي بين يديه، فقامَ من مجلسه وبخطواته قطع القاعة ذهابًا ومجيئًا، تلاحقه نظراتُ الجالسين على طرفي المنضدة في عتمةِ الليل، يقطع ذلك السكون صوت الكاردينال:

– لم يكنِ الملك موفقًا في اختياركم لمثلِ هذه المهمّة، سبع سنوات ولم تستطيعا تنصيرَ أهل غرناطة، قولا لي ماذا فعلتما؟!، اتّبعتما سياسة اللين والرفق وكانت نتائجُها مذهلة.. أليس كذلك؟!، بضعُ نفرٍ من المسلمين نَصّرتم؟!!، هؤلاء من تدعون أنّهم نتاجُ سياستكم الحكيمة، ما تنصّروا إلّا من أجل مصالحهم، مثل هؤلاء دائمًا يبحثون عن المنتصر ليكونوا معه.

تبادلَ الكونت تنديا والمطران طلبيرة النظراتِ فيما بينهما، لقد كانا أمامَ داهية متعطش للانتقام، يسعى لتحقيق مجدِه الشّخصي، وسيعبُر على جثثهما

إن وقفَا في طريقه، بإشارة من طرفِ عينه يشير الكونت إلى المطران أن تلطّف معه، فيبدأ المطران حديثه:

- سيدي الكاردينال، إنّنا لم نحقّق النتائج المطلوبة بفعل ذلك الشعب العنيد الذي لن يتخلّى عن دينه وإنْ قطّعناه إربًا، فإنْ تحريكَ جبلٍ من مكانه أهونُ عليك من أن تغيّر عقيدةَ المسلم، هُم يرون أنّ مَن يموتٍ دفاعًا عن دينه شهيد، وسيحطّ رحاله في الفردوس، وتلك المعاهدةُ التي تكتف أيدينا، وتجعلنا عاجزين عن أن نُقدم على شيء لكيْلا نكون أوّلَ مَن نقض تلك المعاهدة.

- أيّها المطران، أنت لم تعِ الدّرس جيدًا، نحن نوقّع معاهدات ولكننا لن نحفظها، هي مجرّد حبرٍ على ورق، وقد باركَ البابا ألكسندر السادس نقضَ تلك المعاهدة وقد غفرَ لنا خطيئة نقضِها، وعندنا الغاية تبررُ الوسيلة، ألست معي فيما قلت، فغايتنا أنْ نعيد تلك الخراف الضّالة إلى حظيرة الكاثوليكية، وإذا تعذر علينا جذبُ الكفار إلى طريق الخلاص؛ وجب جرُّهم إليه جرًّا.

مرّر المطران يدَه على الصليب الذي يحمله بيده قائلًا:

- لكنْ يا سيدي الكاردينال، إذا تمّ نقض المعاهدة من جانبنا، ماذا سيقول عنّا ملوك أوروبا حينها؟، لم نستطعْ أن نحفظ تلك المعاهدة التي لم يجفّ حبرها.

مطّ الكاردينال شفتيه مُبديًا عدمَ الرّضا عن كلام المطران طلبيرة وهو يهتف قائلًا:

– أُفضّل عدمَ الخوض في مثل تلك الأمور الآن، ولتدعك من هذا الكلام أيها المطران، وليذهب ملوك أوروبا إلى الجحيم، الآن لدينا عملٌ كثير مع تلك الخِراف الضّالة التي يجب أن نسوقها إلى حظيرة الرب، وستكشف لكم الأيام ماذا سنفعلُ في أهل غرناطة؟، ولترتفع الأجراسُ والصلبان بدلًا من المساجد والآذان، ولتعلو التّرنيمات بدلًا من التلاوات.

يداعبُ الكونت تنديا أطرافَ لحيته قائلًا:

– سيّدي الكاردينال، هل يمكنك أن تُطْلعنا على ما ستفعله في قادم الأيام؟

– بالطّبع أيها الكونت.

عادَ الكاردينال خمنيس إلى مجلسِه، ومدّ يده إلى أحد الأدراج ليُخرج بعض الأوراق قائلًا:

– اطّلعَا عليها، وبعدها يمكنكم الانصراف.

ناولَهما الأوراق، وهبّ الكاردينال واقفًا واتّجه إلى كرسيه الوثير، وبدأ في قراءة الكتاب المقدس.

***

بحرُ الظلمات

البارجة تمخرُ عبابَ المحيط، يتقاذفها موجٌ كالجبال وهي تجري في ظلام الليل، كانت ليلةً حالكة السواد لا يُرى فيها أثرُ النجوم، يقبع هاتوي على متنِ السّفينة وقد شدّت يداه خلفَ ظهره مقيدًا بالسّلاسل معَ جمع غفير من أبناء جلدته، الكلّ غارق في النوم لكنه قدْ جفاه الكرى، وأبتْ عيْناه إلّا الاستيقاظ رغمَ ضعف جسده، وجراحه التي خلفتها أيادي أولئك الذين عدوْا عليهم في أرضهم، وقتلوا كبارهم، وأسروا صغارهم.

طافَ بعينيه في تلك الأكوام المكدّسة من البشر على متن البارجة، ثمّ رفع بصره إلى السّماء فوجدها حالكةَ السّواد، اجتمعتْ عليه الظلمات في بحر لُجيّ، ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة الرّق لأولئك الذين لم يرقبوا في وطنِه رحمة، فقتلوا وسبوا وعذبوا من أجل الحصولِ على الثروات، ويوم أنْ نضبتِ الثّروات ساقوهم عبيدًا إلى قشتالة، كان يقبع في طرف السفينة مصفدًا في الأغلال، هطلتِ الأمطار فبلّلته وغسلت الحزن عن قلبه.

عادتْ به الذكريات إلى طفولته، ذَكّره المطرُ بالماضي السعيد، حياة هادئة سعيدة ولعب مع الأطفال، لكن كان للقشتاليّين رأي آخر، عدوا على قريته، قتلوا أباه، أبوه الذي تمّ وضعُه على مشواة من القضبان وأوقدوا تحته نارًا هادئة، يتذكّر ذلك المشهد جيدًا، وتلك الصّرخة التي أطلقها والدُه من شدّة الألم والعذاب، لا تزال تلك الصّرخة عالقة بذاكرته، لنْ تستطيع أن تمحوها الأيام.

حرقوا القرية ولم يتركوها إلّا وقد غزاها الدمار، فعلوا كلّ هذا عشية دخولهم إلى القرية، صنوفُ العذاب التي أتى بها القشتاليّون إلى بلادهم كانوا لم يروها من قبل، ولم يسمعوا عنها، للذكريات شجون، والشجونُ مهيّجات للقلب والعيون بالدمع، زرفت عيناه الدموع لحاله الذي غدَا عليه منذ أن تمّ أسرُه ووضْعه على متن تلك السفينة اللعينة، هدأت أمواجُ البحر فهدأتْ نفسه، ولاحَ له الفجر من بعيد.

سمعَ بعض الجنود يتسامرون طيلة الليل عن قربهم من إشبيلية، وما ينتظرهم من عطاء الملك لهم، وكم اشتاقوا لأبنائهم الذين تركوهم في قشتالة.

تناهَى إلى سمعه حديثٌ دار بين جنديّين ممّن كانوا موكلين بحراسة تلك الأكوام المكدسة من العبيد الذين لا حولَ لهم ولا قوة.

- سانشو، أمَا آنَ لتلك الرحلة أن تنتهي؟! لقد اشتقت لأبنائي الذين تركتهم في قشتالة، وقد مرّ علينا أكثرُ من عام ونحنُ نعيش في القرى بحثًا عن الذهب.

التفتَ ردريك ناحية سانشو قائلًا:

- لقدْ آن يا صديقي لنا العودة، إنّنا نقترب من بلادنا، وسننال العطاء الجزيل من الملك والملكة على ما جلبنا لهم من الذّهب والعبيد، وسننعم بالعيش الرغيد مع أبنائنا.

رفعَ هاتوي رأسَه لينظر حوله، فهوى السوطُ على ظهره مُخلفًا صوتَ ارتطام من أثر القوة، وصوتُ أحد الجنود يتردد في الأرجاء:

- لا ترفع رأسَك أيها الكلب.

كلّ خليةٍ في جسده تلعنهم، لم تتركونا وشأنَنا وقتلتم وحرقتم مَن بقي حيًّا، تركتم له ندبة في حياتنا لن تمحوها الأيام، وإنْ كانت الأيام كفيلةً بمحو النّدبات، كم من الأيتام والأرامل والثكالى تركتم...؟

لم يدرِ أين تلك الرحمةُ في قلوبهم؟! يجدهم يتحدثون عن اشتياقهم لبلادهم وزوجاتهم وأطفالهم وكأنّهم ليسوا هم مَن قتلَ وحرق وبقرَ البطون، حديث مع النفس كان قاسيًا على هاتوي؛ ذلك الشابّ الصغير، ومع إشراقات الصباح صاحَ رجلٌ منهم:

- اليابسة.... اليابسة.

***

قصرُ الحمراء

جدرانٌ تزيّنها نقوشات ومقرنصات، وجمل عربية، وشعارات بني الأحمر، لونها في النهار كلونِ الشّمع، حروفها مائلة في تناسق عجيب، يغلب عليها اللون الذهبي، نقشت عبارة «لا غالبَ إلّا الله» على الأقواس نصف الدائرية التي تحملُ السقف، بدت الحمراء مهيبة الجَمال، كعروس تتألّق بين الأخريات، لم تطلع الشّمس على أجمل من قصر الحمراء. جالسٌ على كرسيه كعادته، ممعنٌ النّظرَ في جدران قصر الحمراء، بعد ليلة قد جفاه النومُ فيها، يشغل تفكيره ما سَيُقدم الكاردينال خمنيس على تنفيذه، ستكون كارثة بكلّ المقاييس، متحدّثًا بصوت مسموع وكأنّه يكلم شخصًا آخر:

- المسلمون رغم اختلافنا سيظلّون عصبَ قيام المدينة، غرناطة لن تنهض بغيرهم، القشتاليّون يطمعون في الإقطاعيّات وتَملّك الأراضي، لن تقوم المدينة على مثل هؤلاء.

دلفتْ ماريا ابنةُ الكونت تنديا إلى القاعة ترتدي فستانًا كالنبيذ الأحمر، فقطعت تلك الخلوة، وجدتْ أباها شاردَ الفكر فقالت:

- أبي، ما لي أراك على غير عادتك هذه الأيام؟!

- لا شيء يا بنيتي، لقد تعقّدت أمورُ المدينة بقدوم الكاردينال خمنيس، بأفعاله تلك سيأخذُ المدينةَ إلى حافّة الهاوية، وستشتعل الثوراتُ في كلّ مكان، وحينها لن نكونَ قادرين على التصدّي للغرناطيين.

- وماذا سيفعل يا أبي؟!

- لقدْ أطلعنا أنا والمطران إيرناندوا دي طلبيرة على خطته البارحة، هو يريد السيرَ على خُطى الكاردينال توماس دي توركمادا فيما فعله مع المارانوس في طليطلة، هو لا يفقه أنّ الغرناطيّين يختلفون عن المارانوس.

قطعَ حديثه دخولُ أحدِ الجنود ليجثو عند قدمي الكونت تنديا هاتفًا:

- سيّدي الكونت، إنّ سيدي المطران إيرناندوا دي طلبيرة ينتظرك في بهو السفراء.

- أخبره أنّي قادم.

انصرفَ الجندي، ثمّ تبعته ماريا إلى الخارج، في حين نهض الكونت تنديا من مجلسه دفعةً واحدة، واتّجه إلى بهو السفراء، قاطعًا الدّهليز المؤدّي إليه.

لقد جاء المطران إيرناندو دي طلبيرة في وقته.

***

سوقٌ المدينة – غرناطة

في صباحِ يوم مشرق في غرناطة، وكعادةِ أهل المدينة ينتصب السوقُ كلّ صباح، أصواتٌ صاخبة تملأ المكان، نداءات الباعة التي تصمّ الآذان، الكلّ منشغل في عمله، بائع الغلال منشغلٌ بالكيل لزبائنه، ومشترٍ يُجادل صانع الأواني الخزفية في الثمن، كان هذا ديدنَ المدينة كلّ يوم، لكنّ القدرَ كان يخبّئ لها أيامًا مظلمة بدأت منذ وطئت أرضَها أقدامُ الكاردينال.

كان محمد جالسًا في دكّان الوراقين ينسخ في كتاب، وعبد الرحمن ممسكًا بقوارير زجاجيّة يقوم بإعداد الدّواء لأحد المرضى، حين دوّت قرعات الطبول في كلّ مكان، فانتبه الناسُ عَلّهم يجدون مصدرَ الصوت، لحظات وأتتْ فرقة من شرطة المدينة ومعهم منادٍ يمسك برقعةٍ بدأ يقرأ منها، لقد كانت بداية النهاية للمسلمين في غرناطة.

"بيانٌ من سيدي الكاردينال خمنيس أسقف طليطلة وتوابعها، يدعوكم سيدي الكاردينال لحضورِ المناظرات التي ستُقام بين فقهاء المسلمين والقساوسة في حيّ باب الرملة في صباح اليوم القادم، ليتبيّن لنا أين الحقّ فنتبعه، وليُعلم حاضركم غائبكم".

دوّت ثانية قرعاتُ الطبول معلنةً انتهاء البيان، وسار الموكبُ لينتقل لمكان آخر، حتى هدأتِ الأصوات، وانقطعت الكلمات، وراع الناس ما سمعوا من طلب الكاردينال الذي ما حطّت قدماه مدينتهم إلّا البارحة.

تركَ محمد كتابَه الذي ينسخه، ووضع الريشةَ في المحبرة وانطلق إلى صديقه عبد الرحمن الذي كان مثلَ بقية الناس قد راعه ما سمعَ للتّو. كان محمد يرى في صديقه من الفراسة والذكاء ما يستطيعُ أن يستشفّ به مغزى هذا الإعلان في هذا الوقت.

دلفَ محمد إلى صديقه فوجده تاركًا ما بيدِه مُتفكرًا في مآلات ما سمع فتمتم قائلًا:

- السّلام عليكم يا أبا محمد.

التفتَ عبد الرحمن إلى محمد قائلًا:

- وعليكم السّلام يا صديقي، أسمعتَ ما تفوّهت به تلك الأفواه القشتالية عن تلك المناظرات بين الفقهاء والقساوسة؟

يجلس محمد ويبدأ في حديثه:

- نعم سمعت، هل لديك تفسيرٌ لما سمعت من قدوم الكاردينال على مثل تلك الخطوة؟!

- اسمعْ يا محمد، لقد أقدموا على فعلهم هذا لزعزعة العقيدة في نفوسنا، وأجزم أن القشتاليّين يريدون سحبنا إلى أرضهم ليكونوا هُم الطرفَ الغالب في المعركة، وسيلجئون إلى فكرة أنّ الدينَ الأحقّ هو الذي انتصر.

وهبّ عبد الرحمن واقفًا من مجلسه، وأشارَ لمحمد ليتبعه قائلًا:

- هيّا بنا، لنذهب إلى شيخنا الصقري لنعلم مكنونَ ذلك الإعلان، فلديه تفسيرٌ لما يحدث.

بينما همَا يسيران، أقبلَ عامر يحثّ الخطى نحوهما هاتفًا:

- إلى أين المسير؟

توقّفا بعد أنْ سمعا عامر يتحدث إليهما:

- سنذهبُ إلى شيخنا الصقري لنستوضح منه ماذا يريد الكاردينال منّا؟ فلديه جواب لما يحدثُ في غرناطة.

- سأذهبُ معكما، فكلّ أهل غرناطة قد راعهم ما سمعوا، ولا بدّ من تمحيص الأمر لنعلمَ مغزى ذلك الإعلان في هذا الوقت.

***

الكاتدرائية

تسلّل شعاعُ الشمس على استحياء من إحدى النوافذ الخشبية التي تكثر في جدران الكاتدرائية صانعًا خطًّا مستقيمًا ساقطًا على التّمثال المثبت بالجدار فزاده توهجًا وبريقًا. كان الكاردينال يجلس كعادته على مكتبِه الأنيق الذي يتوسّطه الشمعدان الذي يتفرع إلى خمسةِ أفرع من الشّموع المقدسة، واضعًا أمامه الصليبَ الذهبي وعصاه على طرف المنضدة.

صرّ الكاردينال على أسنانه، حدّثته نفسه بأنّ ما قاله المطران طلبيرة عن المسلمين صحيحٌ، وشردَ بفكره مخاطبًا نفسه بصوت مسموع:

- كيف ستواجه أولئك المسلمين أيّها الكاردينال، وعقيدتُهم راسخة في قلوبهم، ويعتبرون مَن قُتل دفاعًا عن دينه شهيدًا وجبتْ له الفردوس؟!، أنت تعلم أنهم أقوياء، ولكنّهم يفتقدون إلى القيادة!، ماذا ستفعل أيها الكاردينال؟

دارتْ في رأسه الأسئلة التي عجز أن يجدَ لها جوابًا، لم يقطعها سوى طرقات على الباب انتزعته من تفكيره الذي أصبحَ ملازمًا له منذ أن قدمَ إلى غرناطة، ليدخل مساعده ويدنو منه بإجلال، وما إنْ رآه الكاردينال حتى تمتم قائلًا:

- مرحبًا يا سالثيدو.

اقتربَ سالثيدو من المكتب، وقدّم له التحية قائلًا في احترام:

– قداستك لقد أذعنا البيانَ في كلّ أرجاء غرناطة، في السوق وحيّ البيازين وباب البنود وحي باب الرملة، لم نتركْ مكانًا نعلم فيه اجتماعًا لهؤلاء المسلمين إلّا أعلمناهم.

أسندَ الكاردينال جذعه باسترخاءٍ على كرسيه الوثير قبل أن يخاطب مساعده:

– عملٌ جيّد يا سالثيدو، فليبارك الربّ مسعاك.

– لديّ سؤال سيدي الكاردينال؟

ردّ الكاردينال دونَ أن يلتفت إلى مساعده:

– تفضّل يا سالثيدو.

منذُ قدومِهما إلى غرناطة لم يعدْ سالثيدو يفهمُ كيف يفكّر الكاردينال، لقد زاد غموضه أكثرَ من ذي قبل، لذلك سألَه سالثيدو وقد بدا عليه عدمُ الفهم:

– ليباركِ الربّ عملَك يا سيدي، هل لك أنْ تخبرني ما العائدُ علينا من تلك المُناظرات الجدلية بيننا وبينهم؟!

ارتسمتِ ابتسامةٌ على شفتي الكاردينال:

– سالثيدو، أنت تلازمني طيلةَ سنين لكنّك إلى الآن لم تفهمْ سيدك الكاردينال؟!، نحنُ لن نجني شيئًا سوى الجدال، هذا فيما يبدو للناس، لكن

سنستميل قلوبًا ضعيفة إلينا يومَ نلقي الشّبهات عليهم، والقلب الذي يتلقّى الشبهات ذاك قلبٌ سيتبعك لا محالة.

طرحَ سالثيدو سؤاله على الكاردينال:

– قداستك، وماذا سنفعلُ بالشيخ الصقري والفقهاء؟!

قاطعَه الكاردينال بحدّة، ضاربًا بقبضة يده على المنضدة وهو يصرخ:

– لا أريدُ أن أسمع شيئًا عن الفقهاء، هؤلاء هُم حجر عَثْرَةٍ أمام طموحاتنا، وخاصّة كبيرهم الصقري هذا، له كلمةٌ مسموعة عند العامّة منهم والخاصّة، الفقهاء يجب أنْ ينفّذوا كلامنا لأنّهم هُم الحصن الحصين لأولئك الفئام، لن نتمكّن من السيطرة على غرناطة، إن لم ننهِ أمرَ الفقهاء.

– وماذا سنفعل معهم إذا لم يذعنوا لأمرنا؟!

لمعتْ عينا الكاردينال، وجاءت إجابته حاسمةً وواثقة، فاقتربَ من مساعده مربّتًا على كتفِه قائلًا:

– لا تقلقْ يا سالثيدو، سيكون لدينا معهم شأنٌ آخر.

مدّ الكاردينال يدَه ليفتح درجًا من أدراج المكتب، وأخرجَ أكياس جلدية ووضعها أمامه، وأطالَ النّظر إليها، وأخذَ يعدّ الأكياس بأصابعه التي غزاها الكبر:

– ستأخذُ هذا المال، ستتألّف به قلوبَ الرجال أصحاب الرأي المسموع في غرناطة، وتستميل به البسطاءَ من عامّة أهل المدينة، سندفع اليوم لنجني أضعاف ما دفعناه غدًا، حينما تنتعشُ جيوبنا من أموالهم.

يمرّر سالثيدو يده على رأسه غيرَ مدركٍ ما يرمي إليه الكاردينال متفكرًا:

- كيف سنجني الأموال من هؤلاء الناس؟

تعلو وجهَ الكاردينال ابتسامةٌ ماكرة وكأنّه قرأ ما يدور في رأس سالثيدو ممّا جعله يهتف:

- أعلمُ ما يدور في رأسك يا سالثيدو، ألم أقل لك إنّك إلى الآن لم تفهمْ كيف أفكر؟

فكّر سالثيدو لحظة ثمّ أضاف:

- قداستك صاحبُ فهْم دقيقٍ للأمور التي تغيب عن أفهام الكثير من الناس، لكن يا سيدي كيف سنفعلُ ذلك؟

أشعّت عينا الكاردينال بالعزم وهتف:

- محاكم التفتيش.

ارتفعَ صوت الأجراس مخترقًا صمتَ الكاتدرائية، وعلتْ أصوات الترانيم معلنة دخول وقتِ العظة الأسبوعية، فاتّجه سالثيدو إلى الصليب الذهبي المستقرّ على المنضدة ليتناوله ويقبّله، ثمّ يناوله للكاردينال قائلًا:

- سيّدي، لقد حان وقتُ عظتك.

تناولَ الكاردينال الصليبَ ونهض دفعةً واحدة واتّجه خارجًا يرسف في حلله الحريرية الموشّاة بالذهب، وتوقّف وكأنّه تذكّر شيئًا، فحانت منه التفاتة إلى الوراء هاتفًا:

- سالثيدو، لا تنسَ ما قلتُه لك، ولتأخذِ الأموال، أريد أنْ أرى نتائجَ ما قلته قريبًا.

انكبّ مساعده يجمعُ صررَ المال من على المنضدة، وهو يهتف:

- ليبارك الربّ قداستكم، قريبًا يا سيدي سترى.

كانت أوّلُ عظةٍ للكاردينال خمنيس منذُ أن ألقت به الأيامُ في غرناطة.

***

قصرُ الحمراء

وقفَ المطران إيرناندو دي طلبيرة في بهْو السفراء متأمّلًا في الجدران التي ازدانت بجمل عربيةٍ مزخرفة، حروفُها متزاحمة أَبَى صانعُها أن يترك قيدَ أنملة فيما بينها، كانت الجدرانُ مكسوّة بالرخام الأبيض، وقد كُتب عليها آياتٌ من القرآن زُخرفت بعناية، قرأ منها عبارة كتبت بكثرةٍ على الجدران «لا غالبَ إلّا الله»، إجادتُه للّغة العربية مكّنته من قراءة كلّ المنقوشات التي زينت الجدران.

وقفَ أمامَ أحدِ الجدران متأمّلًا إيّاه، وقد اكتسى بالدوائر والخطوط المتقاطعة والزخارف البديعة، مرّر المطران يدَه على تلك الدوائر والخطوط متتبّعًا طرقاتها ودروبها، حتى قاطعَه صوتُ الكونت تنديا وهو يدخل إلى بهوِ السفراء هاتفًا:

- ألم تنتهِ من تتبّع تلك الدوائر والخطوط يا قداسة المطران؟!

فاجأه ذلك الصوتُ ليخرجَه من تفكيره، فالتفت المطران إيرناندو ليجدَ الكونت تنديا قادمًا نحوَه، ممّا جعله يهتف قائلًا:

- ولن أنتهي!، إنّني في كلّ مرة أجدُ من الإبداع ما يفوق الوصف، أحيانًا يدور بخاطري أنّ مَن بنى وشيّد ذلك القصر الملائكةُ وليس الأندلسيّين، فتهزني الحقيقة فأنفضُ ذلك الخاطر عنّي، فيعاودني سؤالٌ لماذا سمح الربّ لتلك الأيادي أن تبدع كلّ هذا الإبداع مادام ساخطًا عليهم؟، ولماذا سلبَ منهم كلّ هذا مادام راضيًا عنهم؟

صمتَ الكونت تنديا، ولم يعرفْ كيف يجيب، لقد باغته المطرانُ بسؤاله، فحوّل دفّة الحوار:

– قداسة المطران، دعكَ من هذه الأمور الآن، فلديْنا مصيبة ستحلّ على رؤوسنا إنْ لم نتدارك الأمر.

سارَ المطران بضعَ خطوات، ثمّ رمى بجسده على الكرسي الموضوع في طرف القاعة وتبعَه الكونت تنديا، وجلس هو الآخر أمامه، والمطران إيرناندو يتطلّع إلى الجدار قائلًا:

– لا غالب إلّا الله.

زوى الكونت تنديا ما بينَ حاجبيه، فلم يفهمْ ما قاله المطران، ممّا جعله يتساءل:

– ماذا قلتَ قداسة المطران؟!

– لا شيء أيّها الكونت، إنّ أفعال الكاردينال ستضعنا في مأزق لن يمكننا الخروج منه، إنّه يسعى لفرض التّنصير على مسلمي غرناطة أو النفي والتهجير.

زوى الكونت تنديا ما بينَ حاجبيه، وأعلنها للمطران طلبيرة:

– قداسة المطران، لا يهمّني أن يفرض التنصيرُ عليهم أو يحرقهم، فليذهب المسلمون إلى الجحيم، لكنّ النفي والتهجير سيُعجل بخراب غرناطة، إنّ الأندلسيّين أيادٍ عاملة ذكية يمكنها أن ترتقي بقشتالة إلى العُلا، وأنت ترى

النبلاء ليسَ لهم همّ إلّا الاستحواذ على الإقطاعيات، فليسَ بمثلهم سترتقي المملكة، إننا نفرضُ على المسلمون مكوثًا وضرائبَ أعلى ممّا نفرضها على القشتاليّين، وهذا ينعشُ الخزانة، أليس هذا ما نسعى لأجله قداستك منذُ أن حطّت رحالنا سويًّا في غرناطة؟

صمتَ المطران طلبيرة لحظةً قبل أن يتكلم:

- أعلمُ حرصَك على المملكة أيّها الكونت، لكن الكاردينال خمنيس يقوده تعصبه إلى جرّ قشتالة لحروبٍ ستكون فيها الخاسرة، إنّ الكاردينال لديه طموحات سياسيّة يسعى لتحقيقها، ولن يوقفه شيء.

ظلّ الكونت تنديا مُفكرًا فيما قاله المطران، وهمس قائلًا:

- وماذا سنفعل قداسة المطران؟

حشرجَ صوته وكأنّه يكشف عن أمرٍ خطير:

- لنْ نفعل شيئًا، ستفعل الأيام ما يجبُ فعله، حينها سيدرك أنّ سياسة اللين كانت أسْلم، وأحذّرك أن تعترض عليه في شيء، فقربُه من الملكة إيزابيلا يخوّل له أن يزجّ بك داخل أقبية الديوان المقدس.

أقبلَ جنديّ فجأة ناحية الكونت تنديا فانحنى على ركبته وقال:

- سيّدي الكونت، إنّ مساعد الكاردينال ينتظر ببابكم، ويقول إنّه يحمل رسالة إلى جلالتكم.

التفتَ الكونت تنديا ناحية المطران إيرناندو متعجبًا وقال:

- أدخلوه.

فُتح البابُ مُصدرًا أزيزًا، ودلف سالثيدو مساعدُ الكاردينال، فألقى التحية على الكونت تنديا والمطران طلبيرة.

- مرحبًا سالثيدو.

نطقَ بها الكونت تنديا في حينِ اقترب سالثيدو من الكونت تنديا، وأخرج من جيب عباءته الحمراء التي يتوسّطها صليبٌ ذهبي اللون لفافة من الأوراق، تناولها الكونت تنديا وفضّها، واطّلعَ على ما فيها وطواها وقال:

- سالثيدو، يمكنك الذهاب الآن، ولتخبر قداسة الكاردينال أنّ كلّ شيء سيكون كما أراد.

انطلقَ سالثيدو طاويًا الأرضَ عائدًا إلى الكاتدرائية، تبعه الكونت تنديا بعينيه حتى خرج من بهْو السّفراء، فالتفتَ إلى المطران ومدّ الأوراق إليه، وهتف غاضبًا:

- أرأيت قداستك أنّ الكاردينال مُصرٌّ على فعل ما أتى من أجله.

أمسكَ المطران بالرسالة، وأمعنَ النّظر فيها، فانتفض وهبّ واقفًا وصرخ:

- مناظرات؟! معَ مَن؟!

سكتَ لحظة قبل أن يضيف:

– الكاردينال لم يدركْ إلى الآن معَ مَن سيتعامل، إنّ المسلمين أهل علم، وسيقضون عليه من أول مناظرة.

هزّ الكونت تنديا رأسه، وبدا عليه عدم الفهم:

– قداستك، وماذا سنفعل الآن؟

وجاء الجوابُ قاطعًا:

– سننتظرُ ما تسفر عنه الأيام، ليس لدينا خيارٌ آخر.

***

الفصلُ الثّاني

بدايةُ النّهاية

وقفَ جبلُ شلير بقامته العالية معانقًا السحاب، مُحكمًا غطاءه الأبيض الذي يتدثر به ولا ينزعُه عنه إلّا أيامًا معدودات، يراقب مدينةَ غرناطة التي عرفها منذ زمن بعيد، لقد غيّرتها السنون وتعاقبُ الأيام، لم تعدْ تلك المدينة التي يعرفها، أضحى فيها كلّ شيء مختلفًا، لقد استوطنها الظلمُ والظلام، وانطفأتْ شمس العدل فيها، لم تعدْ تلك الرمانة التي عهدها منذُ القدم، يراها لأوّل مرةٍ منكمشةً على نفسها، فزفر ريحًا باردة حملت معها بعضَ الثلج الذي تساقط في نهري حدرة وشنيل الثاويان تحته، مَن يراه يحسبه قاسيًا على المدينة، لكنّه كان أحنّ على غرناطة من القشتاليّين.

دارتْ رحى المناظرات الجدلية التي كان يتولّى كبرَها الكاردينال خمنيس، دارت مناظراتُهم في غلبة النصرانية على الإسلام، وكيف أنّ المسلمين ما انهزموا على أيدي القشتاليّين إلّا لأنّ الله كان وراء سعي القشاتلة ومؤيّدًا لهم، كانت الجلسات تستمرّ طوال اليوم، وكان قصبُ السبق دائمًا للفقهاء، كانوا يقارعون الحجّة بالحجة ويفندون الشبهات التي يلقيها الكاردينال ومعاونوه، أدركَ الكاردينال خسارتَه وقوّة خصمه، فآثر الانسحابَ لينتقل بعدها إلى خطته التالية.

يراقبُ جبل شلير الصمت الذي أطبقَ على حي باب الرملة بعد أن كان يضجّ بالأصوات بعد يومٍ آخر من المناظرات التي أجراها الكاردينال خمنيس بين الفقهاء والقساوسة.

وكعادتهم كلّ يوم يجتمعُ الفقهاء في منزل الشيخ الصقري لمناقشة الأمور التي طرأت على المدينة، بعدَ يوم آخر من المناظرات الجدلية التي كانت تجرَى في غرناطة وكان النّصر فيها حليف الفقهاء.

- الغلبة كانت دائمًا في صفنا.

قالها الفقيه أبو عبد الله الزبيدي وهو يحتسي كوبًا من اللوز الساخن، كان في المجلس الذي أعدّه الشيخ الصقري كوكبةٌ من العلماء الذين لم يُؤثروا السلامة، ولم يتخلوا عن الثّغور التي وقفوا عليها، منافحين عن الإسلام وأهله.

جالسٌ كعادته وسطَ طلابه، متحلّقين حوله كالشهب بالبدر، هكذا دأب الشيخ الصقري، كلّ ليلة يجمع الفقهاءَ والعلماء ليتشاوروا في أحوال غرناطة التي انقلبت رأسًا على عقب منذُ أن وطئت قدمُ الكاردينال أرضَ المدينة، تمتم الشيخ الصقري في وقار:

- لا تفرحْ يا بني، فالكاردينال لن يرضى بالهزيمة، وسيسعى جاهدًا لطريق آخر يُجْدي معه نفعًا، وستكشفُ لكم الأيام صدقَ هذا الحديث، إنه ما أتى إلى هنا من أجلِ مناظرات جدلية، لكن مِن أجل الإبادة لشعبٍ جرمُه أنه نطق الشهادة.

يدير عبد الرحمن دفّة الحوار ناحيته:

- سيّدي، أرى أنّ الكاردينال ما فعلَ ذلك إلّا من أجل استقطاب الناس وزرع بذور الشّبهات في قلوبهم، وأخشى أن تجدَ بذور الشبهات أرضًا خصبة فتنبت وتترعرع، والكاردينال لديه خطةٌ يتبعها، وهذا واضحٌ للعيان.

أعجبَ الشيخ الصقري بذكاء وفطنة عبد الرحمن فابتسم قائلًا:

- الحقّ يا بني في الدنيا لا يكاد يختلف عليه اثنان، لكنّ النفوس انغمست في الهوى فضلت الطريق، والحقّ يلزمه قوة تدافع عنه، وتقف بجانبه وتنافح عنه، وقد فعلنا ما بوسْعنا فدحضنا الشبهات، ورددنا عليها واحدةً تلو الأخرى، وأخشى أنْ يستقطب الناس بالأموال، والنفس البشرية مجبولة على حب المال، فذاك الذي نخشى أنْ ينتهجه في أيامه القادمة.

***

إشبيلية

علتِ الشّمس في كبدِ السماء، أحاطت إشبيلية بأشعتها، لفحتْه شمس الظهيرة في سوق العبيد، ظلّ هاتوي في أيدي بائعي العبيد تتقاذفه الأيام، أضحى سلعة تباع وتشترى، أُهدرتْ كرامته، مصفّد بالسلاسل ينتظر دورَه ليأتي سيده الجديد الذي سيدفع أكثر ليُرضى جشع ذلك التاجر.

وقفَ عليّ الغرناطي بين جموع الناس، صحبَه الفضول ليشاهد أولئك العبيد الذين أتت بهم السفنُ من الأرض الجديدة، أناسٌ تغلب عليهم الحمرة، ذوو أجساد ضعيفة، قد أجهدَها التّجديف على السفن، كلّ واحدٍ فيهم لديه حكايةٌ مؤلمة تشاهدها في عينيه، نظراتُهم توحي بحديث مؤلم:

– لماذا تفعلون بنا هكذا؟ أمَا كفاكم قتلُ آبائنا، وحرق أمهاتنا وذوينا، أما كفاكم بقرُ البطون، ونهبُ الثروات، وهتك الأعراض، وإحراق الأحياء، واستعباد الناس.

كان هاتوي يمتلك عيني ذئبٍ توحيان بالقوّة رغم ضعف جسده وآثار السياط التي ألهبت ظهره، تلاقتْ عيونهما، إنّهما يتشابهان كثيرًا في قوة النظرات، إنّه يُذكره بنفسه يوم كان في مثل سنّه.

– يجبُ أن آخذَ ذلك الفتى.

هكذا حدث عليّ الغرناطي نفسه، فتمّ له ما أراد، لقد دفع مبلغًا كبيرًا من المال ليرضي جشعَ ذلك التاجر.

كان عليّ قد أعدّ راحلته لمغادرة إشبيلية، لقد اشتاق لغرناطة، كان قد أنهى الأعمال التي أتى من أجلها إلى إشبيلية، واصطحب معه هاتوي إلى غرناطة.



حيّ البيازين

انزوى الغروبُ خلفَ الجبال التي لاحت في الأفق، تسلّلت العتمة لتحكم غطاءها حول المدينة، وأقبلَ الليل يسعى ببطء ناشرًا خيوطه في الأرجاء، وقد أقبل الظلامُ ليخيم على المنازل، قامَ إلى مصباح الزيت ليشعلَ الضوء، أمسك بعود الثقاب، أشعل النار، قرّبها من الفتيلة المتهيّئة للقاء، طرقاتٌ على الباب، أعاد الشيخ المصباح إلى مكانه وهتف قائلًا:

- إنّي قادم.

لم يمنعه كبرُ سنّه من مزاولة أعماله بنفسه، سارَ ناحية الباب حرك المزلاج وانفتح الباب، هاله ما رأى فهتف الشيخ:

- تفضّل يا بني.

دلفَ عبد الرحمن إلى الداخل، وحرّك الشيخ المزلاج وأغلق الباب، وسارع الشيخ ليعدّ كوبين من شراب اللّوز الساخن، ثمّ أقبل وجلس بجوار عبد الرحمن:

- يا بني، كلّما نظرت إليك أراك حزينًا.

استحثّ الشيخ الصقري بكلماته الرقيقة عبد الرحمن على التحدث:

- أشعرُ بانقباض كلّما طرأ على تفكيري ما ستئول إليه أمورنا، إنّنا في بحر خضم لا ساحلَ له، جرفتنا الأمواج بعيدًا عن الأمان، كلّما أوغلنا في الزمان تظلم غرناطة علينا أكثر.

ردّ الشيخ وهو يبتسم:

- يا بني، هوّن على نفسك، هكذا الدنيا طبعتْ على كدر ولا تصفو لأحد.

قال عبد الرحمن وقد بدأتْ تنجلي من عليه سحائبُ الحزن:

- أخشى عليك يا شيخي، منذُ رأيت مساعد الكاردينال يقف معك هذا الصباح، ومنذُ أن علمت أنّ الكاردينال استدعاك للقائه وأنا أشعرُ بانقباض في قلبي، ولا أذكرُ أنّي أحسست بانقباض مثله من قبل.

ارتشفَ الشيخ من كوبه قليلًا من شراب اللوز، وأشرق وجهه بابتسامة:

- هوّن عليك يا بني، ألم تعلمْ أنّه لن تموت نفسٌ حتى تستوفي رزقها الذي كتب لها، وأنت ترى أنّنا على مشارف النهاية، فليكنْ موتنا شهادة في سبيل الله ودفاعًا عن دينه.

أسرع عبد الرحمن قائلًا:

- أطال اللهُ عمرك يا شيخي، لكن ماذا يريدُ منك الكاردينال الآن؟، ألم تفحموهم في المناظرات التي دعا هو إليها؟!

ندّت عن الشيخ ابتسامة هادئة:

- يا بني، إنّ الكاردينال يسعى ليحقّق خططه التي جاء من أجلها إلى غرناطة، لن يعنيه أَهُزم في المناظرات أم ربحها، إنّه يسعى لشيء أكبر، إنّه يسعى لتحويلنا عن ديننا.

هتفَ عبد الرحمن بنبرةٍ غلب عليها الحزن:

– أخشى عليك من تلك المقابلة مع الكاردينال، حتماً إنّ وراءه هدف من تلك المقابلة، ألم تلاحظ أنّه لم يتمّ دعوة غيرك!

انفرجتْ أسارير الشيخ، وارتسمتْ على شفتيه ابتسامة عريضة أشعّ منها وجهه نورًا:

– يا بني، نحن ولله الحمد لا نخشى شيئًا، سأذهبُ وأرى ماذا يريد الكاردينال منّي، لن نجبنَ يا بني حتّى يعلم أنّنا لا نخشى المواجهة، أتريد أن يقال جبن الشيخُ الصقري وخشيَ على حياته وآثر السلامة.

ارتشفَ الشيخ قليلًا من شراب اللوز السّاخن، وأكمل حديثه:

– يا بني، ألم يقلْ ربنا {لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ}؟، أنت ترى ما وصلَ إليه حالنا، لذا لن نُمكّن للكاردينال ما أراده أَبدًا، ومادمت حيًّا سأظلّ أنافح عن دين الله حتى يواريني الثرى.

بدا الحزن والفزع على وجه عبد الرحمن:

– أطال الله عمرك يا شيخي، لا تقل هذا يا شيخي.

قاطعه الشيخ الصقري:

– لقد عَلّمتكم ما تحتاجون إليه في أموركم، لقد أديت الرسالة التي عليّ، وإذا أردتني في يوم من الأيام فلتنظرْ في نفسك ستجدُ ما علّمتك إياه، إنه ينتظركم يا بني أهوالٌ جسام، ولن يتوانَى الكاردينال خمنيس في إبعادكم

عن دينكم وثقافتكم، لقد رأى في غرناطة الشيء الذي سيخلّد اسمه على مرّ الأزمان، لكن سيخلد اسمه على جثثِ الآلاف منكم، فلتكنْ يا بني ممّن يدافع عن الإسلام بحكمة.

أنهى عبدُ الرحمن كوبَه، ووضعه على الطّاولة أمامه، وكذلك فعلَ الشيخ، ونهض مودعًا للشّيخ الصقرى واتّجه ناحية الباب وهو يهتف:

- حفظَك الله يا شيخنا.

سارَ عبد الرحمن في طرقات المدينة، لا يسمع سوى وقع قدميه، عبرَ تلك الطرق عائدًا إلى بيته، ظلّت كلمات الشيخ تتردّد في رأسه، وقف في إحدى الطرق، أحسّ أنّه آخر لقاءٍ سيجمعه بالشيخ، ولكنّه نفض تلك الهواجس عن رأسه، وأكمل مسيره.



على مشارف غرناطة

مالتِ الشّمس للغروب ثمّ ضعفت وشحبَ لونُها، وأسلمت الروحَ فلبس الكون كله في حداد، وأقبلَ الليل بظلمتِه على الكون، كان كلّ شيء ساكنًا سكونَ الموت، ولاحت النجومُ واضحة قوية، كان علي وهاتوي قد قطعا شوطًا كبيرًا في طريقهما إلى غرناطة، وكان عليهما أخذُ قسطٍ من الراحة ليكملَا طريقهما، فهتف علي:

- لا بدّ لنا من الراحة بعضَ الشيء، وكذلك الخيول أضناها طول المسير، ويلزمها بعضُ الراحة.

تمتم هاتوي:

- أمرك يا سيدي.

تلك الكلمات لم تعجب عليًّا، فأقبل على هاتوي مخاطبًا:

- يا بني، أنا لست قشتاليًّا، إنّ سيدي وسيدك الله، ألم أخبرك أنك قد صرت حرًّا.

برد الرمل واستحالَ إلى فراش جميل، واستلقى علي وهاتوى بجوار بعضهما بعد أن أوثقوا الخيول، ولاَحتْ لهما النجومُ واضحة قوية، بدأ عليّ الغرناطي في الحديث سائلًا هاتوي كيف قذفت به الأيام إلى إشبيلية:

- أخبرني يا بنيّ كيف جئت إلى هنا أسيرًا؟

تنفّس هاتوي الصّعداء من ذكْر هول هذه الأيام، فقد أعادَ السؤال له ذكريات حزينة ثمّ بدأ في حديثه، وكأنّ الكون كله يصغي لحديث هاتوي:

– كنّا شعوبًا غفيرة راضية لا نعرف الشرَّ والرياء، ولا نعرف الضغينة ولا الصخب والعنف، شعوب تجهل الحقدَ وسوء الطوية، كنّا نعيش في سلام وأمن حتى غشينا القشتاليّون كالذئاب والنّمور والأسود المتوحشة التي لم تجدْ طعامًا أيامًا وأيامًا، منذُ أن وطئت أقدامُهم بلادنا وهم يعيثون في الأرض فسادًا، قتلوا وحرقوا وفتكوا بنا من أجلِ الذهب، كانوا ينظرون إلينا كالحيوانات، ويا ليتهم اعتبرونا حيوانات، لقد قام القشتاليون بمذابحَ بشعة في كلّ الأراضي التي وطئها أقدامهم، كانوا يدخلون القرى فلا يتركوا طفلًا إلّا ذبحوه أو امرأة حاملًا إلّا وبقروا بطنها، وكانوا يتراهنون على ما في بطنها، وينتزعوا الأطفال الرضع من أمهاتهم ويمسكونهم من أقدامهم، ويرطمون رؤوسهم بالصخور أو يلقونهم في الأنهار ضاحكين ساخرين.

كنّا قد سمعنا عن كلّ تلك المذابح، ومَن سمع ليس كمَن رأى، كان لدينا زعيم يدْعى هاتوي، وفي يومٍ من الأيام جمعنا وقال:

– لقد سمعت أنّ القشتاليّين قادمون إلينا، وقد سمعتم ما قد جرى في القرى المجاورة، وأنّهم قادمون إلينا ليعيدوا ما فعلوه، هل تعلمون لماذا يفعلون بنا ذلك؟

فقال له أحدُنا:

– إنّهم يفعلون ذلك من أجل ربّهم الذي يعبدونه ويقدّسونه، ويريدوننا أن نؤمن به؛ فلذلك يقتلوننا.

وكان الملك هاتوي يملك سلةً صغيرة بين يديه ممتلئة بالذهب، فرفعها عاليًا، وابتسمَ قائلًا:

- هذا هو ربّ القشتاليّين، إنّه الذهب.

وهتفنا جميعًا:

- ماذا نفعل أيها الملك؟

فصرخ هاتوي:

- سوف نرمي بهذا الذهب في النّهر لأنّهم سيقتلوننا في كلا الحالتين، هم أناس لا يشبعون قدْ أعماهم الطمعُ والجشع، إذا حصلوا على الذهب أرادوا المزيد، وحينها سيقتلوننا، وإذا لم نمكّنهم من أخذِه سيقتلوننا، وحينها تتساوى الحالتان.

كان كلّ شيء ساكنًا سكونَ الموت، ليلة مظلمة ظلمة القبر، أوى كلّ واحد منّا إلى كوخه، وعلمَ القشتاليون بما فعلَ زعيمنا وفعلنا، وعند منتصف الليل أقبل الجنودُ يعيثون في القرية الفساد، وأشعلوا النارَ في الأكواخ، ثمّ أمسكوا بالزعيم هاتوي، وعلّقوا له المشنقة.

ثمّ أقبلَ عليه راهبٌ من الرهبان الفرنسيسكان، ودار بينهما حديث طويل، وكنت على مقربةٍ من المكان الذي علق فيه زعيمنا، لكنْ مع هذا القرب لم أستطعْ أن أسمعَ منه إلّا جزءًا يسيرًا، ذلك الجزء الذي ظلّ محفورًا في ذاكرتي:

- عليك أن تغتنمَ ما تبقّى من عمرك وتؤمن؛ لأنّ إيمانك سوف يدخلك الفردوس ويبعدك عن الجحيم.

قالَها الراهب وهو يطوفُ حول الملك هاتوي المعلّق على المشنقة، فهتف الملك هاتوي في الراهب:

- وهل أمثالكم في الفردوس؟

علتْ نبرةُ الراهب وقال:

- لنْ يدخل الفردوس إلّا مَن كان منّا.

عندَها قال الملك من غير تردّد:

- أرسلني إلى النار، إنّني أفضل دخول النار عن أنْ ألتقي بكم في الجنة.

أنهى الراهبُ حواره معَ الملك، وبعده أقبل قائدهم وقد تطايرَ الشرر من عينيه من فعلِ الملك، وصرخ بكلّ ما أوتي من قوة:

- كيف فعلتَ ذلك، سترى الآن ما مصير مَن يقف أمام أسياده.

- أيّها القائد لا عليك، أعلمُ كيف يحترق داخلك على الذهب.

وأطلق الملك ضحكةً جلجلت المكان، وقد زادت ضحكةُ الملك هاتوي من غضب القائد الذي بدأ في صراخه:

- أشعلوا النار، احْرقوه، ليعلم كلّ مَن هنا أنّ مصير من يقف أمامنا الموت.

وتمّ إضرامُ النار، اشتعلت النار في ذلك الجسد المقيد والمتدلي من حبل المشنقة، وما هي إلّا دقائق وكانت الروحُ قد فارقت الجسدَ لتظلّ شاهدة على قسوة القشاتلة.

استرسل هاتوي في حديثه الذي يقطر حزنًا، كان قد فقدَ حياته كلها حين فقد بلده وأهله وسعادته، نظرَ إلى النجوم فإذا هي بعيدة، بعيدة جدًّا، يسترجع نظرته البائسة مغسولة بدموع الحزن، لقد أوغلَ كثيرًا في جحيمِ الذّكريات وكأنّه يمشي إلى الموت.

حديثٌ ذو شجون أثارَ في نفسه حزنًا، وقد انحدرت الدمعاتُ على وجنتي علي وهو يستمعُ إلى حديث هاتوي.

كان الفجرُ قد انبلج واستوى عودُه، وامتدّت خيوطه فإذا هي تملأ الأرض كلها، وانحسر الظلامُ كاشفًا عن الأرض الممتدّة أمامها التي كانت مخبوءة وراء حجاب الليل، فامتطيَا الخيول، وطارت بهما تسابقُ الزمنَ إلى غرناطة.

***

الكاتدرائية

تثور الغضبُ الكاردينال، فهبّ واقفًا من مجلسه قاطعًا القاعة ذهابًا ومجيئًا، توقف في منتصفِ الغرفة، وهتفَ بصوت غاضب:

– الفقهاء.. الفقهاء، تعسًا لهم، إنّهم يقفون حجرَ عثرة في طريق تحقيق مخططي، يجبُ أن أتخلّص منهم، يُمكنني البدءُ بكبيرهم الصقري، لقد أتى دوره.

قالها ثمّ أطلق ضحكة تردّد صداها في الأرجاء، في حين يُفتح الباب ويدلف سالثيدو مساعدُ الكاردينال قائلًا:

– سيّدي، لقد أتى الشيخ الصقري، وهو ينتظر في الخارج.

يعلو وجه الكاردينال البشرُ والسّرور، لقد حان الوقتُ ليزيل حجر العثرة الأكبر الواقف أمامَه مانعًا إيّاه من تحقيق أهدافه.

دخلَ الشيخُ الصقري وقد ناهز السبعينَ من عمره، يعلوه الوقار، قد كثر الشيبُ في لحيتِه، رجلٌ صالح زاهد، حسنُ الأخلاق والسيرة، يحظَى بالحبّ والاحترام من أهل غرناطة، صاحبُ بصيرة ثاقبة، صاحبُ كلمة مسموعة في كلّ غرناطة، تسري كلمته على الكبير قبلَ الصغير، جلس الشيخ على المقعد المعدّ له.

ينظرُ الكاردينال خمنيس إلى الشيخ فيجدُه يجلس أمامه هادئًا في تواضعٍ مع عزّة النفس، فيستشيط غيظًا من صنيعه، ويهتف:

- أخبرني أيها الشيخ.. لماذا لم تترك غرناطة وتعبر إلى عدوة المغرب مع مَن عبرَ مِن علمائكم؟!

يفترّ ثغرُ الشيخ بابتسامة جميلة، ويبدأ حديثه:

- كيف نعبرُ إلى عدوة المغرب ونترك بلادنا؟، إنْ تركْنا الثغور مَن سيقف عليها إذًا؟

- أنتَ تعلم أنّ الإقامة في غرناطة الآن محفوفةٌ بالمخاطر الشديدة والمآسي والأهوال.

تبسّم الشيخ ضاحكًا من قول الكاردينال، وقال:

- ذاك قدرٌ قد كتبه اللهُ علينا، ونحن لا نفرّ من قدر الله، ولا يحقّ لنا أن نترك الثغورَ ونحن ندافعُ عن دين الله، حتى وإن كان في البقاء هلاكنا.

كلماتُ الشيخ زادتْ من غضب الكاردينال، فشمل الشيخ بنظرة فاحصة، وقال:

- لا فائدة إذًا أيها الشيخ، يبدو أنّك عنيد، وطرقنا مختلفة.

ردّ الشيخ بثقة:

- لا فائدة أيّها الكاردينال، لا طريق بيننا، نحن مختلفون، ولن تتّفق طرقنا أبدًا، إذا أقنعتني أنّ دينك صحيحٌ سأتّبعك على الفور.

تفحّص الكاردينال وجهَ الشيخ وكأنّه وجد ضالته، أراد أنْ يوقع بالشيخ في مهاوي الخطأ، وقد بدا على وجهِه الامتعاض، فقال:

- تعني أنّ النصرانية دين غير صحيح ؟!

اضطربَ الشيخ قليلًا، وأدرك أنّ الكاردينال يسوقه إلى الفخّ الذي أعدّه له، فعاد الهدوء إليه سريعًا، وأجاب:

- إنّي راض بديني وعقيدتي، وليس هناك ما يدعو إلى تغيير ديني، لكن مازلت عندَ رأيي، أقنعني أتبعك.

بدا الانزعاجُ واضحًا على ملامح الكاردينال فهتف:

- لقد قلت إنّ النصرانية دينٌ غير صحيح.

ردّ الشيخ معقبًا:

- أيّها الكاردينال، لا يليق بك وأنتَ رجلُ دين، وتعتلي أعلى منصب ديني في قشتالة؛ أنْ تتصيّد لي كلمة في حديث أنت من دفعتني إليه، وأنتم مَن طلبتم حضوري إلى هنا، ولست أنا مَن أتيت مِن تلقاء نفسي.

أدركَ الكاردينال أنّ الشيخ قد خرج من الفخّ، فسلك مسلكًا آخر:

- وهل تجرؤ على رفض الحضور إذا استدعيناك؟

انتظرَ الشيخ قليلًا قبل أن يجيبَ في هدوئه المعهود:

- نعم أجرؤ أيّها الكاردينال، أنا أتيت إلى هنا باختياري، ولا أريد أن يتفاقم الأمرُ بيننا أكثرَ من هذا، وبيننا وبينكم معاهداتٌ أرجو أن تكون قد قرأتها جيدًا.

ابتسمَ الكاردينال ابتسامة ماكرة، وكان الشيخ الصقري قد هبّ واقفًا وهَمّ بالانصراف، فهبّ الكاردينال من مجلسه، وأمسك بيد الشيخ وقال:

- لا تغضبْ أيّها الشيخ، لا تغضب، وتفضّل بالجلوس؛ فلديّ ما سأقوله لك، فاسْمعني جيدًا.

لم يعارضِ الشيخ وجلسَ، ولسانه يردّد:

- لا حولَ ولا قوة إلّا بالله العظيم.

مدّ الكاردينال يدَه بكأس من النّبيذ الأحمر للشيخ، الذي لم يلتفت إلى الكأس، وبدا عليه الغضبُ من أفعال الكاردينال، فهتف:

- ديني ينهاني عن الخمر.

- لا عليك أيّها الشيخ، أنت الخاسر.

وأفرغَ الكاردينال الكأسَ في جوفه جرعةً واحدة، والشيخُ يتساءل وقد بدا الضجرُ واضحًا على قسماتِ وجهه من أفعال الكاردينال:

- أيّها الكاردينال، أخبرني لماذا تمّ استدعائي إلى هنا؟، أمن أجل تلك السخافات؟

صفّق الكاردينال بيديه، وما هي إلّا لحظات ودخل سالثيدو إلى القاعة، فقام إليه الكاردينال فتهامسَا، ثمّ أشار الكاردينال بيدِه إشارةً لها مغزى، فانصرف سالثيدو، وعاد الكاردينال إلى مجلسه، فتوجّس الشيخ في نفسه خيفة، وبابتسامة ماكرة هتف الكاردينال:

- ستعرف كلّ شيء في وقته أيّها الشيخ، والآن جاء الوقت لتعلم كرم الكنيسة معك، لكنْ يلزمك أن تقدّر ذلك الكرم، ولا تبخلْ علينا بما نريده منك.

زوي الشيخ ما بين حاجبيه، وبدا عليه الضّجر ممّا جعله يتمتم:

- لا أفهمُ ما ترمي إليه أيها الكاردينال.

لم يمضِ وقت طويل، وعاد سالثيدو يحمل كيسًا من الحرير الأزرق، فناوله للكَاردينال الذي صارَ يرفعه لأعلى قليلًا، ثمّ يلتقطه والابتسامةُ لا تفارق محيّاه، فجأة توقف ومدّ يدَه بالكيس ناحية الشيخ، وقال:

- هذا الكيسُ لك أيها الشيخ.

لم يحرّك الشيخ يدَه ليلتقط الكيسَ من يد الكاردينال التي لا تزال ممدودة بالكيس، وقال الشيخ:

- قلتُ لك لم أفهمْ مرادك أيها الكاردينال.

مازال الكاردينال مادًّا يدَه بالكيس ناحية الشيخ وهو يردف:

- هذا الكيسُ به ألفُ دينار ذهبيّ لك، لكنّ الأموال لها مقابل، وأنت تعلم هذا جيدًا، أليسَ كذلك أيها الشيخ؟

اعتدلَ الشيخ الصقري في جلسته، وقد بدا عليه الضجرُ من تلك السخافات وقال:

- لا أظنّ أنّي بحاجةٍ إلى هذه الأموال أيها الكاردينال، إنّني في رغد من العيش أحمدُ الله عليه، ويمكنك إيضاحُ مطلبك بدون استخدام الألغاز أيها الكاردينال.

لمعتْ عينا الكاردينال وهو يهتف:

- نحن بحاجةٍ إلى فتوى صغيرة منك لهؤلاء الناس الذين تجلس إليهم في مجلسك بعدَ العشاء في منزلك، وتلك نقطة سنعود إليها لاحقًا.

زوى الشيخُ ما بين حاجبيه، وهتف مستوضحًا:

- عن أيّ فتوى تتحدث أيها الكاردينال؟!

تطايرَ الشّرر من عيني الكاردينال رغمَ تلك الابتسامة الماكرة التي لا تفارقه من بداية حديثه مع الشيخ الصقري، وقال:

- فتوى بجواز تركِ الإسلام والدّخول في النصرانية، لا نريد أكثرَ من هذا، وسنغدق عليك من الأموال الكثير، الأمرُ بسيط أيها الشيخ.

هبّ الشيخُ واقفًا دفعة واحدة وهو يرتعدُ من الغضب ممّا سمعه من الكاردينال، وهو يهتف:

- تريدني أنْ أفتي هذه الفتوى بألف دينار؟!

بابتسامتِه الماكرة التي لا تفارقه أردفَ الكاردينال:

- لا تغضبْ أيها الشيخ، كم تريد ثمنَ فتواك؟

فغرَ الشيخ الصقري شفتيْه بابتسامة استهزاءٍ زادت من غيظ الكاردينال وهو يتمتم:

- ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾، لن تسمع منّي تلك الفتوى، حتى وإن أعطيتني خزائنَ ملكيك وخزائن البابوية في روما لن تسمعها، ليكنْ هذا علمك، نحنُ نختلف عنكم أيها الكاردينال.

قالها الشيخُ وقد هبّ واقفًا ليغادر المكانَ في حين قام الكاردينال إلى مكتبه فقرع ذاك الجرسَ الفضي الذي يتوسّط المكتب، وهو يشير بأصبعه محذرًا:

– سأسمعُ منك تلك الفتوى هذا اليوم، ليس لديك أيّ خيار آخر، ولك الألف دينار.

دخلَ سالثيدو إلى القاعة فصاحَ به الكاردينال بعصبية:

– فلتستدعِ ليَ الحرس الآن.

عندَها تحدّث الشيخ الصقري:

– أيّها الكاردينال، بفعلك هذا أنت تخترقُ المعاهدة التي وقّع عليها ملكاك ورجال الدّين، وباركها البابا في روما.

– لنْ يعلم أحدٌ أنّي اخترقت تلك المعاهدة، ونحن لا تقيّدنا معاهدات، تلك حبرٌ على ورق، وأنت لم تعِ الدّرس جيدًا، المعاهدات تحتاج قوة لتحميها، لقد تفرقتم أيّها الشيخ، ولا يأكلُ الذئب من الغنم إلّا القاصية.

– كلّ المدينة تعلم أنّي في مقابلة معك.

قهقَه الكاردينال فبلغَ مدى ضحكاته سقفَ القاعة، وقال:

– وسيعلمون أنّك قد تخلّيت عنهم وتركتهم، وعبرت إلى عدوة المغرب فارًّا بنفسك مؤثرًا السّلامة، حينها ستلعنك الألسنة، أرأيت..؟!، الأمرُ سهلٌ أيها الشيخ.

دخلَ ثلةٌ من الجنود إلى القاعة، وأحاطوا بالشيخ كإحاطةِ السّوار بالمعصم، وأشار لهم الكاردينال:

- خذوا هذا الأحمق وضعوه في السجن، وليتمّ ضربُه بالسياط حتى يذعن لما نريد، ولتعلمَ يا شيخ أنّ ما نريده سنأخذه.

- ستعلم عاقبةَ أمرك أيها الكاردينال.

- دعْك من هذا الهراء، لديك فرصةٌ أخيرة، الأجدرُ بك أن تستغلها، ولتعلم أنّ الكاردينال يأمر ولا يطلب.

ساقَ الحرس الشيخَ إلى السجن، وأشارَ الكاردينال إلى سالثيدو الذي أقبل سريعًا:

- ليتمّ أخذه إلى السجن القابع تحت الكاتدرائية، ولا أريد أن يعلم أحدٌ مكانه، ويتمّ جلدُه مائة سوط، ثمّ بعدها اسألوه هل لا يزال عند رأيه من الامتناع عن الفُتيا؟، فإنْ لم يفعل فاضربوه مائة أخرى، ثمّ اسألوه فإنْ لم يفعل فاضربوه مائة أخرى، هيّا...

- أمرُك قداسة الكاردينال.

عادَ سالثيدو يسأل من جديد:

- سيدي وإنْ لم يذعن لَمَا أردنا بعدَ كلّ هذا، ماذا نفعل؟

تطايرَ الشّرر من عينيه، وأشار إلى رقبته قائلًا:

- يكفي ثلاثمائة سوط يا سالثيدو، ولا أظنّه سيتحملها، حينها أعلمني وسأخبرك ماذا تفعل.

***

حيّ البيازين

تسارعتْ وتيرةُ الأحداث في الأيام الأخيرة في غرناطة، تعاقبت الساعاتُ ثمّ تلتها الأيام ولا أحد يعلم ما فعلَ الكاردينال خمنيس بالشيخ الصقري، فقد كان آخر عهدهم به في المجلس الذي كان يعقده في بيتِه بعد العشاء قبل ثلاثة أيام، سارَ عبد الرحمن في شوارع غرناطة كاسفَ البال من وقْع الصدمة التي تلقّاها منذُ أن غاب الشيخ الصقَري.

– تُرى ماذا فعل خمنيس بشيخنا الصقري؟

مُحدّثًا نفسَه متفكرًا فيما ستئول إليه الأمور، لقد صدقَ رأي الشيخ الصقري في خمنيس حينما قال له «**إنّه أتى ليعيدَ ما فعله توماس توركمادا مع اليهود، لقد أتى إلى غرناطة لبناء مجده الشخصي**» .

عادَ علي الغرناطي من إشبيلية صباحًا بصحبة ذلك الفتى الذي اشتراه من تاجر العبيد في سوق إشبيلية، في تلك اللحظة كان يتسوّر سطح داره فشاهدَ بلاسكو دي باريو آخذًا بتلابيب فتاة فاستغاثتْ بوالدها فأقبلَ والدها يخلّصها من بلاسكو، فلطم بلاسكو الرجل وأقبلَ الناس وسحب مفوّض الشرطة سيفَه وهزّه في الهواء ليهوي به على الرجل الملقى على الأرض، تناول عليّ الغرناطي سهمًا من جعبته وشدّ وترَ قوسه المرن بقوة مصوبًا إلى غايته البعيدة، فاخترق السهمُ الحجب ليستقرّ في أوداج بلاسكو فجندله صريعًا، فكبّر الناس وزادت الحميّة في قلوبهم وتعاهدوا على الانتقام من الكاردينال.

أصواتٌ عالية وجلبة في كلّ مكان، أرهفَ السمع علّه يتبيّن مصدر الصوت، يبدو أن الصوتَ يأتي من ناحية باب البنود، سارَ ناحية الصوت لينظر ماذا هناك، قادته قدماه سريعًا إلى هناك، وجدَ بلاسكو ملقًى على الأرض ملطّخًا بدمائه، فاقترب أكثر من أحد الواقفين وسأل مستفسرًا:

- ماذا حدث؟

- لقدْ أقدم مفوّض الشرطة بلاسكو دي باريو وسالثيدو مساعد الكاردينال خمنيس على الاعتداء على ابنة عبد الله اليحصيبي بالضرب، وكان يريدان أخذها معهما إلى الكاتدرائية بحجّة أنّها من أصل نصراني قدْ أسلم أجدادها من مئات السنين ليتمّ تنصيرها، فاستغاثت الفتاةُ فهبّ أبوها لنجدتها فلطمَه مفوّض الشرطة فاستصرخ بالناس فهبّت جموع الخلق لنصرته، فحدثت مناوشات بيننا وبين مفوّض الشرطة، عندها أتى سهمٌ فاستقرّ في أوداج بلاسكو فسقط صريعًا، ودبّ الهلعُ والرعب في قلب مساعد الكاردينال؛ فهرب لا يلوي على شيء تاركًا خلفه بلاسكو مضرجًا بدمائه، وقبلَ قليل كان كفارس مغوار لا يشقّ له غبار، لكن حبّ الحياة كان قد سيطرَ عليه فأطلق قدميه للّريح تاركًا بلاسكو غارقًا في دمائه.

هتفَ عبد الرحمن قائلًا:

- وما أنتم فاعلون الآن؟

- أصبحَ الناس لا يستطيعون تحمّل ما يفعله الكاردينال، فاجتمع الناس على الانتفاضة على هذا الظلم.

أتاه صوتٌ من خلفه:

– لقد حانَ الوقت يا أبا محمد، لقد بلغ السّيل الربي، ولا بدّ لنا من وقفة في وجه ذلك الكاردينال الخبيث، وتلك الحادثة لا تخرجُ عن تدبيره، بالأمس القريب غيّب الشيخ الصقري، ولا نعلم عنه شيئًا حتى الآن، واليوم يريد أن يجبر المسلمين على التنصر.

التفتَ إلى الوراء فوجده علي الغرناطي فهتف:

– متى عدت يا أبا سعد من إشبيلية؟

– اليوم، يبدو أنّ غرناطة تغيرت كثيرًا!

بدا على وجهِ عبد الرحمن الامتعاض:

– لقد ساءت الأحوالُ منذ أن قدمَ الكاردينال خمنيس إلى غرناطة، في الأمس القريبِ ذهب الشيخ الصقري لملاقاته ولم يعدْ إلى الآن، وها هو يريد إجبارَ المسلمينَ الذين ينْحدرون من أصلٍ نصراني للعودة إلى النصرانية.

صمتَ عبد الرحمن للحظات، وبعدها أردف قائلًا:

– لم تفقدْ موهبتك يا أبا سعد.

ندّت على وجْه علي ابتسامةٌ حزينة فغمغم قائلًا:

– مَن أدراك أنّي مَن أطلقت السهم؟

– ومَن غيرك يا أبا سعد يستطيع أن يصوّب السّهم فيصيب الهدف هكذا!.

بدا الحزنُ على عليّ، وغمغم قائلًا:

- وهل منعت الموهبة سقوط غرناطة يا أبا محمد.

زوى عبد الرحمن ما بين حاجبيه، وهتف قائلًا:

- ما كُتب قد حدث، دعكَ من جلْد ذاتك، لقد قاتلنا مع القائد موسى بن أبي غسان رحمَه الله، لقد تمّ تسليمُ المدينة سلمًا بدون حرب، لو كان الملك كقائده موسى لما دخلَ القشتاليّون غرناطة إلّا بعد فنائنا جميعًا، لقد أدّينا ما علينا يا أبا سعد، لكنّها أقدار قد كُتبت علينا، وقدرُ الله نافذ.

وأردفَ عبد الرحمن قائلًا:

- دعْنا من الماضي يا أبا سعد، فنحنُ الآن أمامَ مصيبة حلت على رؤوسنا، فماذا سنفعل؟

- المقاومة.

هتفَ بها علي، ثمّ صمت لبرهة من الزمن وأكمل قائلًا:

- إنّ الكاردينال خمنيس والكونت تنديا لن يرضوا بما حدث اليوم لمفوض الشرطة، سيعملون على الانتقام منّا؛ لذا وجبَ علينا أن نسبقهم بخطوة، سنحصن حيّ البيازين، وسنفرض الحصارَ على الكاردينال في مكان إقامته، وليعلموا انه يمكننا أنْ نُشعل الحرب في كلّ ربوع غرناطة.

استحسنَ عبد الرحمن ذلك الرأي لكنه عاد وسأل:

- وماذا سنفعل لنجاح تلك الانتفاضة يا أبا سعد؟

– يا أبا محمد، ليحالفنا النصر لا بدّ لنا من قيادةٍ نسمع لها ونطيع، وسأعمل جاهدًا لدعوة الناس مَن يقود الحرب.

صمتَ عليّ لبعض الوقت مرتبًا أفكاره، وأردف قائلًا:

– يلزمنا التعجيلُ يا أبا محمد؛ فالوقت ليس في صفّنا، وسأعمل على إخبار كلّ من بقي مِن الرجال الذين كانوا معَ قائدنا موسى بن أبي غسان رحمه الله، فلديهم خبرة عسكرية سنستفيدُ منها في حربنا، ولتعمل أنتَ على جمع العلماء وكلّ مَن كان له صوت مسموع في غرناطة، ونلتقي قريبًا في منزلي.

***

الكاتدرائية

أقبلَ سالثيدو قاطعًا الممرّ المفضي إلى غرفة الكاردينال، طرق الباب، فهتف الكاردينال من الداخل:

– فلتأتِ يا سالثيدو.

دفع سالثيدو البابَ الذي دار على محوره، وأصدر صريرًا عاليًا، ودلف إلى الداخل واقترب من الكاردينال، وقال:

– سيّدي الكاردينال، لقد فعلنا ما قلت، ومازال الشيخ الصقري مُصرًّا على رأيه، لقد مضى عليه أكثرُ من ثلاثة أيام، ومنعنا عنْه الطعام والشراب ولم تلِنْ عريكته إلى الآن.

هبّ الكاردينال واقفًا، وبدا الغضبُ على قسمات وجهه:

– يبدو أنّه سيتعبنا ذلك الأحمق، أمَا كان له أن يفتي بتلك الفتوى ويريح نفسه ويريحنا معه.

هتفَ سالثيدو متسائلًا:

– وماذا سنفعل الآن يا سيدي؟

تناولَ الكاردينال عصاه، وتوجّه ناحية الباب قائلًا:

– سأتصرّف أنا يا سالثيدو، عليّ أن أنهي ذلك الأمر.

انطلق الكاردينال وتناول سالثيدو مصباحًا زيتيًّا كان معلقًا في زاوية الغرفة، سارا في الممرّات المظلمة حتى دخلا غرفةً فارغة لا يوجد بها أثاث، فوضع سالثيدو المصباح على الأرض، وحرّك حلقة مثبتة في أرضية الغرفة، فانفتح الباب الخشبي المفضي إلى السّجن، فانبعثت منه رائحة كريهة لم يستطعِ الكاردينال أن يتحملها فوضع يده على أنفه.

- سيّدي الكاردينال، هنا يقبع الشيخ الصقرى.

أومأ الكاردينال، فأخرج سالثيدو مفتاحًا وأداره في القفل، وانفتح الباب، ودلف سالثيدو يتبعُه الكاردينال إلى داخل الغرفة.

كان الشيخ جالسًا في طرفِ الغرفة، وقد شحبَ لونه ورقّ عظمه ونحلَ جسمُه، وكأنه خرجَ لتوّه من القبر.

أضاءتِ الغرفة فجأة، ولم تستطعْ عينا الشيخ أن تتحمّل الضوء فوضعَ يده على عينيه، حتّى بدأت عيناه تعتادُ على الضوء فرفع يديه تدريجيًّا عن عينيه.

بدَا على الكاردينال الانزعاج، وكأنّه يشفق على الشيخ وهتف:

- مَن فعل هذا بالشيخ يا سالثيدو؟

لاذَ سالثيدو بالصمت، فوجّه الكاردينال كلامه للشيخ الصقري:

- أرأيت أيّها الشيخ..؟، لقد أتعبت نفسك، بكلمةٍ منك كنت ستنقذُ نفسك من كلّ هذا العذاب.

علتْ ضحكات الشيخ رغمَ الألم الذي به مِن فعْل السياط:

– عنْ أيّ عذاب تتحدّث! أتسمّي سجنك هذا والسياط التي ألهبت بها ظهري عذابًا؟! إنّك إذًا لواهِن، الكلمة التي تريدُها تهوي بي في نار جهنم، يبدو أنك لا تعلمُ عنّا شيئًا أيها الكاردينال.

بدَا الاندهاش على وجْه الكاردينال واضحًا، شاهدَه الشيخ رغم ضعف ضوء المصباح الزّيتي، وأضاف الشيخ قائلًا:

– إنّ الإيمان أيّها الكاردينال نزلَ في جذر قلوبنا، لن تستطيع أن تغير تلك العقيدة الرّاسخة في قلوبنا، وسترى ذلك بعينيك عمّا قريب.

لم يفهمِ الكاردينال مغزى حديثِ الشيخ، فهتف قائلًا:

– لم أَعلمْ أنّ أهل غرناطة يقدّروك هكذا، لقد أشعلوا انتفاضة من أجلك.

ابتسمَ الشيخ وأردف قائلًا:

– إنّهم يقدّرون العلم.

لمعتْ عينا الكاردينال في الظلام وقال:

– دعْك من هذا الآن، لم آتِ من أجل الحوار، جئت لأسألك لآخرِ مرّة، وتلك فرصتُك الأخيرة.

أدركَ الشيخ أنّ الكاردينال قد أتى لينهي أمره، فهتف قائلًا:

– يبدو أنّك لم تستطعْ فهمنا إلى الآن، نحن نضحي بأرواحنا من أجل عقيدتنا وديننا، ولا نخشى الموت.

صمتَ للحظات ثمّ أردف قائلًا:

وذلــك في ذات الإلـــه وإن يشأ

يبـــارك على أوصـــالِ شلو ممزّع

فلســت أبـــالي حين أقتـــل مسلمًا

على أيّ جنبٍ كان في الله مصرعي

استلّ الكاردينال خمنيس خنجرَه، وسدّد للشيخ الطعنات وهتف غاضبًا:

- متْ أيّها الشيخ، فمَن لم يكن معنا، لن يكون علينا.

تفجّرت الدماءُ على أثر الطعنات، وتمدّد الجسدُ في الغرفة، وتمتم الشيخ قائلًا:

- أشهدُ أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمّدًا رسول الله.

وفاضتْ روحُه لتظلّ شاهدة على الظلم الذي تعرّض له تحت أقبية الكاتدرائية.

أسرعَ الكاردينال بالخروج من الغرفة يتبعُه مساعده، فالتفت للوراء قائلًا:

- سالثيدو، ليتمّ التخلص من الجثة، ولا أريد أن يعلم أحدٌ أننا قتلناه، سنشيع بين الناس في غرناطة أنّه تركهم وعبرَ إلى عدوة المغرب.

هتفَ سالثيدو:

– أمرُ قداستك.

التقطَ الكاردينال شمعةً كانت مثبّتة على أحد الجدران، وسار بها تاركًا سالثيدو ليتولّى أمرَ التخلص من الشيخ.

***

قصبةٌ الحمراء

أقبلَ المطران إيرناندو دي طلبيرة والكونت تنديا ناحية بيت الكاردينال، ودخلا دون الانتظارِ ليستأذن لهم الحارس، كان هادئًا يصبّ لنفسه كأسًا من النبيذ الأحمر، التفت ناحيتهما ومازالَ على حاله هادئًا، ارتشفَ الكأس جرعة واحدة، وهتف قائلًا:

- ما بالكما؟! ما لي أراكما مذعورين هكذا؟!، أوقعت السماء على الأرض!

هتف الكونت تنديا وقد بدَا عليه الغضب:

- ماذا فعلتَ يا صاحب القداسة، إنّ المدينة الآن تغلي وتوشك على الانفجار، كلّ هذا من جرّاء السياسة التي تتبعها، وماذا فعلت بالشيخ الصقري؟

بهدوئه المعهود، وابتسامته الساخرة التي لا تفارق محيّاه؛ هتف قائلًا:

- قتلته!!.

رسمَ كلّ من المطران طلبيرة والكونت تنديا علامةَ الصليب على جسدهم وقال طلبيرة:

- هل سمعتَ يا صاحب القداسة بما حدث في حي البيازين اليوم؟

- نعم سمعت، بعضٌ من الأوغاد صنعوا هياجًا، وقتلوا مفوّض الشرطة بلاسكو دي باريو، وهذا ما كنتُ أدفعهم لفعله منذُ وطئت قدمي هذه

المدينة، وقد بدأت النّتائجُ تتوالى في الظهور، من الآن ليس أمام الأندلسيّين سوى خياران لا ثالث لهما؛ التنصير أو النفي، ويمكن للكونت تنديا إرسال بعض من الجند ليفضّ هذا الهياج، وإدخال تلك الجرذان إلى جحورها، أليسً كذلك أيها الكونت؟

زوى الكونت تنديا ما بين حاجبيه وقال:

- الأمرُ أعظم من هذا يا صاحبَ القداسة، إنها انتفاضة حقيقية وقد خرج الناس بالسّيوف والبنادق، ولا ندري عواقب تلك الانتفاضة، ونخشى أن تصل تلك الانتفاضة إلى المدن المجاورة، حينها تكون الطامةُ الكبرى، ولن نستطيع السيطرة على البلاد، لقد قلنا لقداستكم إنّ المسلمين لا يرضون بالضيم، ويختلفون عن المارانوس.

تركَ الكاردينال كأسَه على المنضدة، وذهب هدوؤه المعهود، وبدا الذعرُ يغزوه وقال:

- إذًا، ماذا يريدون؟

هتفَ الكونت تنديا والمطران طلبيرة في آن واحد:

- الشّيخ الصقري.

بابتسامةٍ ماكرة خاطبهم الكاردينال:

- تلك سهلة.

زادتْ دهشة الكونت تنديا وقال:

- وهل يمكن لقداستكم إعادته إلى الحياة؟!

علتْ ضحكات الكاردينال وقال:

– لقد رفض الإيمانَ بالمسيح فذهب إلى الجحيم غيرَ مأسوف عليه، ولكن يمكننا أن نشيعَ فيهم أنّه غادر غرناطة إلى عدوة المغرب فارًّا بنفسه مؤثرًا السلامة، وستكون عاقبة مَن تسوّل له نفسه ويقف في طريقنا؛ القتل.

بدا الغضب واضحًا على وجه الكونت تنديا:

– لن يصدّقنا أحد، فهُم يعلمون أنّك مَن دعيت الشيخ الصقري للاجتماع معك في الكاتدرائية، وأنّه لن يتخلى عنهم ويتركهم في وقتٍ كهذا دون أن يخبرهم، وأنت تعلمُ أنّه كان يرفض فكرة ترك غرناطة، ثمّ ماذا عن مفوض الشرطة الذي أرسلته معَ مساعدك إلى حي البيازين؟

أطالَ الكاردينال التفكير، ثمّ التفت ناحية الكونت تنديا قائلًا:

– أهلُ غرناطة من المسلمين يثقون بك ويحترمون رأيك، وسيصدقونك عندما تخبرهم أنّ الشيخ الصقري قد غادر غرناطة، أمّا بالنسبة لمفوض الشرطة فمن قال إنّي أنا الذي أرسلته؟! ذاك رجلٌ فعل ما فعله من جرّاء نفسه وقد تلقى عقابه. هيّا أيها الكونت اذهبْ وهدّئ هؤلاء الأوغاد، وبعدها نرى ما يمكن عمله، أمّا أنا فلن أستريح ويستقرّ لي قرار حتى أنهي الديانة المحمدية من البلاد.

بدا على الكونت عدمُ الرضا عن كلام الكاردينال:

– يا صاحبَ القداسة، ما نفعله يتنافى مع المعاهدة التي.......

قاطعه الكاردينال بحدّة:

- لا أريد أن أسمع شيئًا آخر، وأنتَ تضيع الوقت في تلك الحوارات، والوقت ثمين وغالٍ.

التفتَ المطران طلبيرة ناحية الكونت تنديا، وأشار له بعينه، فألقيا التحية على الكاردينال وخرجَا، انتقل الكاردينال من مجلسِه واقترب من كرسيه الوثير، وجلس عليه وبدأ القراءة في الكتاب المقدس.

خرجَ الكونت تنديا وقد تثوره الغضب من جرّاء أفعال الكاردينال التي ستهوي بهم في نفق مظلم لن يستطيعوا الخروج منه، وأصبح صوته متهدجًا لا يبين:

- لقد خرجَ الأمرُ من بين يدينا أيها المطران، الكاردينال مازال مصرًّا على اتّباع تلك السياسة، إلى الآن لم يفهمْ أنّه يتعامل مع أناس أذكياء جدًّا، لن يرضوا بأفعاله تلك.

التفتَ المطران طلبيرة ناحية الكونت تنديا قائلًا:

- هوّن عليك أيها الكونت، سنجدُ مخرجًا من ذاك النفق الذي أدخلنا فيه قداسة الكاردينال، ولا تنسَ أنّه يستمدّ قوته من الملكة، وهو عندها صادق، لقد أخبرتك ألّا تقف أمام طموحاته لأنّه سيعبر على جثتك.

بدا الامتعاضُ على وجه الكونت تنديا واضحًا:

- أعلمُ كلّ هذا قداسة المطران، لكنّه يريدنا أن نلطّف الأجواء ونهدئ من ثورة الناس، ومازال يصرّ على تنفيذ المخطط الذي رسمه لنفسه.

- دعْنا نترك ذلك الحديث جانبًا ونذهب إلى حيّ البيازين قبلَ تفاقم الأمر، فالوقت ليس في صالحنا.

قال الكونت تنديا متأففًا:

- سأرسلُ فرقة لتحيطَ بمنزل الكاردينال تحسبًا لأيّ طارئ، إنّ المسلمين لن يرضوا بأفعالِ الكاردينال، وسيسعون للتخلص منه.

***

حيّ البيازين

صاحَ الناس في غضبٍ جارف، وقد تفجرت داخلهم القوةُ الكامنة لكلّ ما لاقوه من الألم وويْلاتٍ العذاب، عادوا لسيرتهم الأولى، أخرجوا السيوف الصدئة والبنادق القديمة والسّكاكين، كانوا في مرحلة نكونُ أو لا نكون، أقاموا المتاريس، وكانوا على أهبة الاستعداد للاشتباك مع الجيش القشتالي.

وتجمّع رجالها يتدارسون الخطوةَ التالية قبل أن يداهمهم رجالُ خمنيس، فالوقت ليس في صالحهم، وجرت المشاوراتُ سريعة بين المجموعة التي تمّ الاتفاق عليها لقيادة الانتفاضة، أشار علي الغرناطي بيده فسكت الناس وأرهفوا السمع، فهتف فيهم:

- لكي ننجحَ في استرداد غرناطة يلزمنا القضاءُ على رأس الأفعى الكاردينال ومساعديه، مِن الآن لن يتركنا الكاردينال نعيشُ بسلام، لقد تجاوز بأفعاله كلّ الحدود، مِن قتل وإجبار المسلمين على التنصر، وقد استقرّ رأينا على أن يتجه فريقٌ لمحاصرة الكاردينال ومساعديه والقضاء عليه، والفريق الآخر يتولى مهمّة جمعِ الرجال والسّلاح وتحصين حيّ البيازين، ويكونوا على استعدادٍ لقتال جيشِ قشتالة.

هتفَ الجميع: ونعْمَ الرّأي يا أبا سعد.

وبدأ عليّ الغرناطي في تقسيم الناس إلى فريقين، وشرح لكلّ فريق مهمّته، واتجه على رأسِ الفريق الموكل بالحصار إلى بيت الكاردينال، وتمّ تطويقه من

كلّ اتجاه، وقد بلغ الرعبُ من الكاردينال مبلغه، فأمرَ رجاله بإغلاق الأبواب والاستعداد للتصدي للهجوم، وأقبلَ الكونت تنديا برجاله فوجدَ المسلمين وقد أحاطوا بالقلعة واستعدّوا للاقتحام، فهتف الكونت تنديا فيهم:

- أيّها الناس، ما تقدمون على فعْله سيضرّ بكم أكثر مما ينفعكم، والاستمرار في الحصار لن يجدي نفعًا، وأنا متكفّل برفع شكاياتكم ومظالمكم إلى جلالة الملكة، لكنْ يلزمكم العودة إلى بيوتكم فلنْ تستفيدوا من قتل الكاردينال خمنيس.

هتف عليّ في الكونت تنديا:

- أيّها الكونت، لن نتنازل عن مطالبنا، وأوّلها عودة الكاردينال من حيث أتى.

هتفَ الكونت تنديا:

- أقسمُ لك وأعدُك بأنّني سأعرض مطالبكم هذه على الملكة، لكن الآن يلزمكم العودةُ إلى حي البيازين.

- ومَن سيضمن لنا أنكم ستوفون بالعهد؟

هتفَ الكونت تنديا:

- هذا وعدٌ منّي يا أبا سعد، ويشهدُ على هذا قداسة المطران، ولا يليق بنا الحديث هنا، ولأثبت لكم صدقَ كلامي سأنطلق معكم إلى حيّ البيازين لنستمع إلى مطالبكم.

تشاورَ قادة الحصار فيما بينهم، فأجمعوا على فكّ الحصار والعودة إلى البيازين، وبعد أن تأكّد الكونت تنديا من تأمين بيت الكاردينال من جانبِ الحامية التي تركها، اتجه هو والمطران طلبيرة إلى حيّ البيازين لينزعا فتيلَ الانتفاضة والتفاوض مع المسلمين.

***

أقبلَ الكونت تنديا والمطران طلبيرة برفقة جنديّين فقط يحثّان الخطى إلى حي البيازين، واخترق الكونت والمطران جموعَ الأندلسيين، وقام الكونت تنديا بخلع قبعته وإلقائها في الهواء عاليًا مُعلنًا للناس أنّه ما جاء إلا من أجل السلام.

استقبله زعماءُ البيازين بالترحاب، وتمّ عقد اجتماعٍ ضمّ الكونت تنديا والمطران طلبيرة وعددًا من زعماء البيازين.

- المطران طلبيرة والكونت تنديا نشكرُ لكما صنيعكما لاحتواء تلك الأزمة.

قالها الشيخ الزبيدي، فأومأ الكونت تنديا برأسه موافقًا:

- ونحنُ جئنا إلى هنا ننشدُ السلام فيما بيننا.

سادَ الصّمت على الجالسين، فقطع ذلك الصّمت صوتُ علي الغرناطي:

- لكنْ نحن لدينا مظالمُ وشكايات لا بدّ لكم من سماعها، لقد تسلط علينا الكاردينال خمنيس، وضيّق علينا في بلادنا، وقتلَ الشيخ الصقري،

ويريد إجبارنا على التنصّر، وهذا مخالفٌ لنصّ المعاهدة التي بيننا وبينكم، ولتعلموا أن من بنود المعاهدة «ألّا يتمّ إجبارُ أحدٍ على تغيير دينه».

قاطعَه الكونت تنديا:

– معذرة على المقاطعة، الشيخ الصقري لم يُقتل، لكنّه غادر غرناطة إلى عدوة المغرب.

زوى عليّ ما بين حاجبيه، وبدا عليه عدمُ الرضا عمّا تكلم به الكونت تنديا:

– دعْك من قولك هذا أيّها الكونت، نحن على علم بمقتل الشيخ على يد الكاردينال، وأنتُم مَن يريد أن تتفاقم الأمور فيما بيننا، أنتُم مَن تريدونها حربًا ضروسًا لا تُبقي ولا تذر.

هتفَ الكونت تنديا:

– نحنُ جئنا من أجل السلام، وأقسمُ لكم من الآن أن تُحترم الاتفاقيات المبرمة بيننا، وسأرفع شكاياتكم للملكين، لكن يلزمكُم الآن فضّ تلك التجمعات.

هتفَ الشيخ الزبيدي قائلًا:

– ومَن سيضمن لنا أنكم ستوفون لنا بما اشترطتم على أنفسكم؟، لقد تعلمنا الدرس، أنتُم لا توفون بما تعاهدونَ عليه، تعطون العهودَ والمواثيق وإذا تمكنتم ضربتم بتلك العهود عرضَ الحائط.

شعرَ الكونت تنديا أنّ كلامه غيرُ مصدَّق من قبل الأندلسيين فخاطبهم:

- يبدو أنّكم غير مصدّقين حديثي، ولأثبت صدقَ كلامي وحسن نيتي سأترك في ضيافتكم زوجتي وابنتي ماريا كرهائن، ريثما أعود من إشبيلية، وبهذا تضمنوا أنّي لنْ أغدر بكم، وسأسعى جاهدًا أن أُجنّب المنتفضين أي عقاب.

هتفَ علي الغرناطي:

- لنرى ما تسفرُ عنه الأيام، وأتمنّى أن تكون عهودكم صادقة هذه المرة.

اتّفقت الحكومة الأندلسية المنتخبة والكونت تنديا والمطران طلبيرة فيما بينهم على فضّ تلك التجمّعات والعودة إلى المنازل، وأقسم الكونت تنديا أنّه سيعمل جاهدًا لحثّ الملكين لرفع الظلم الواقع على الأندلسيين.

***

إشبيلية- قصرُ المورق

أتى مهرولًا مضطربَ الأركان قاطعًا الرّواق الممتدّ من ساحة بهو السفراء إلى قاعة الحُكم، يغالب قدميه ليصلَ إلى قاعة الحكم سريعًا، فالأخبار التي أتته من غرناطة لا تنتظرُ التأخير، قاطعًا البهو متفكرًا فيما ستئول إليه الأمور في غرناطة بعد تلك الانتفاضة، وإعلانُ الغرناطيّين الثورة على ملك قشتالة، كان قد جنّد عيونًا بثّها في غرناطة لتوافيه بما يحدث، لقد نقلت له عيونُه المبثوثة حدثًا جللًا.

دلف خوسيه إلى قاعة الحكم، وجثا على ركبتيه هاتفًا:

- سيدي، لقد اشتعلتِ انتفاضةٌ في حي البيازين على الكاردينال خمنيس، وقد عمل الكونت تنديا على تلطيف الأجواء، فقداسة الكاردينال خمنيس قد قتل الشيخَ الصقري كبيرَ الفقهاء هناك، وتفاقم الوضعُ ووصل الأمرُ بالناس إلى ضرب حصارٍ على بيت الكاردينال، وقد تسارعتِ الأحداث وتفاقم الخطب وقتل الغرناطيون مفوّضَ الشرطة بلاسكو دي باريو في حي البيازين، وحدث خلاف بين الكاردينال خمنيس والكونت تنديا، هذا كلّ ما نقلت إلينا عيوننا المبثوثة هناك.

لاحتِ ابتسامةٌ ماكرة على وجه فرناندو وكأنّه كان ينتظر تلك الأخبار، ممّا جعله يتمتم:

- خوسيه، لقد تأخّرت عيونُك أيها القائد، عيونك لم تأتِ بجديد، لقد فعلها الكاردينال، فأنا أنتظر تلك الأخبار وأعلم أنها قادمة لا محالة، لكنها تأخرت.

- سيدي هل كان لدى جلالتكم علمٌ بما سيحدث في غرناطة؟

- يا خوسيه هكذا السياسة، نحن من صنعنا هذا بأهل غرناطة، لقد أرسلنا لهم الكاردينال لنجبرهم على الانتفاضة، ويكونوا أوّلَ مَن ينقض المعاهدة، حينها نكونُ نحن الضحية وهُم الجناة، وقد أتت النتائج كما أردنا.

زوى خوسيه ما بين حاجبيه، وقال متصنّعًا التعجب من كلام الملك:

- إذًا، السياسة لعبةٌ كبيرة يا جلالة الملك.

انفرجتْ أسارير الملك عن ابتسامة:

- نعم يا خوسيه، السياسة لعبةٌ كبيرة الرابحُ فيها مَن يبيع مبادئه، وقاعدتها الأولى الغايةُ تبرر الوسيلة، وغايتنا إعادة كلّ أرجاء المملكة إلى أحضان الكاثوليكية وإنْ كلّفنا هذا إزهاق الأنفس وترويع الآمنين وطردهم، فغايتنا نبيلة، أليس كذلك يا خوسيه؟

هتف خوسيه:

- بالطّبع يا جلالة الملك، حفظك الربّ راعيًا للكاثوليكية.

- والآن يا خوسيه فلترسل فارسًا إلى غرناطة ليستدعي كلّ من الكاردينال خمنيس والكونت تنديا والمطران إيرناندو دي طلبيرة؛ للنظر فيما نحن فاعلون بعد خرق الغرناطيّون للمعاهدة التي بيننا، وقتلهم لمفوّض شرطة غرناطة بلاسكو دي باريو.

- أمرُك سيدي الملك.

إشبيلية

كان الليلُ ساجيًا ساكنًا كأنّما أغمض جفنيه على حلم جميل، داعبت الأنسام الندية ذوائبَ الأشجار العالية، فتهادت ذاتَ اليمينً وذات الشمال، والقمر يقطع كبد السماء في رحلتِه الأبدية، فتمتزِج أشعتُه بأريج الحدائق الغناء. تهادت الخيول في مشيتها قاطعة ذلك الليلَ البهيج، قطع الركب ذلك الليل في طريقه إلى إشبيلية، ، طريق طويل ولم تتخاطبْ تلك الألسنة فيما بينها، تفاقمتِ الأمور بين الكاردينال خمنيس والكونت تنديا والمطران إيرناندو دي طلبيرة، وبلغت غايتَها في التعقيد، السياسات مختلفة فيما بينهم، الكاردينال ينتهج سياسةَ الشّدة ويسعى لحمل الناس على التنصر وتخليص البلاد من المسلمين نهائيًّا، وتدعمه في ذلك الملكة إيزابيلا، والكونت تنديا والمطران إيرناندو دي طلبيرة يرون انتهاجَ سياسة الرّفق واللين التي ستثمر نتائجُها على المدى البعيد، سار الركبُ طيلة الليل ليجد نفسه قد غدًا في إشبيلية.

وصلَ الوفدُ إلى قصر المورق، وطلبوا الإذنَ بالدخول على الملك والملكة، فأذن لهم في الدخول، توجّهوا إلى بهْو السّفراء حيث يجلس الملك والملكة، وأثناء سير الكاردينال والكونت تنديا والمطران طلبيرة في الرواق المؤدّي إلى بهو السفراء، التفت الكاردينال ناحية الكونت تنديا وهتف:

- كونت تنديا.

لم يجبْه الكونت تنديا، فقد كانت الأمورُ بينهما ليست بالجيدة، كان الكونت غاضبًا من كذبِه على الناس، لقد خسرَ ثقة الناس فيه، ولكن الكاردينال واصل حديثه رغم عدم إجابةِ الكونت له:

- كونت تنديا، أنت تقفُ أمام إدخال هؤلاء الهراطقة إلى الكاثوليكية، أنت تقف أمام خلاصِهم من الخطيئة، وبفعلك هذا أنتَ تعارض السياسات القشتالية، وأنا أريد أن أُدخلَ محاكمَ التحقيق إلى غرناطة، وأنت تحولُ بيني وبين هذه الغاية، وهذا خطرٌ عليك.

وقفَ الكونت تنديا، وانتبه إلى حديث الكاردينال، إنّه يشتمّ في حديثه تهديدًا له:

- وكيف هذا أيها الكاردينال؟

انفرجتْ أسارير الكاردينال وقال ضاحكًا:

- لكنّي أحذّرك أيها الكونت؛ فديوان التحقيق لا يفرق بين أمير وحقير.

صمتَ للحظات ثمّ أردف قائلًا:

- ماذا تعني بكلامك هذا أيها الكاردينال؟!

ندّت عن الكاردينال ابتسامة خبيثة:

- أعني أنّه يمكن أن يتمّ تقديم كونتًا نصرانيًا للتحقيق بتهمة مساعدة المسلمين والوقوف أمام السياسة الملكية في البلاد.

زادَ غضب الكونت تنديا فقدْ شعر بالإهانة من كلام الكاردينال، لكن تمالك الكونت تنديا نفسَه؛ فهو يعلم أنّ الكاردينال خمنيس صاحبُ نفوذ حقيقي، ويأتي سلطانه بعد الملك والملكة فآثرَ السلامة.

دخلَ الوفد يتقدّمهم الكاردينال خمنيس يتبعه المطران إيرناندو دي طلبيرة، ودخل على إثرهما الكونت تنديا شاردَ الذّهن متفكرًا فيما قاله الكاردينال خمنيس.

***

قاعةٌ متّسعة الأرجاء، على جانبيها أعمدةٌ ضخمة قد زُينت بنقوشات عربية يغلب عليها اللّون الذهبي، تغيراتٌ كثيرة طرأت على بهو السّفراء، لكنّه مازال يحمل الطابع الأندلسي.

اقتربَ الوفد من كرسي العرش، وألقوا التحية على الملك والملكة، فأشار الملك لهم بالجلوسِ في تلك المقاعد الوثيرة حولَ كرسي العرش، جلس الكاردينال في جهةٍ، وجلس الكونت تنديا والمطران طلبيرة في جهة أخرى.

لاحظَ فرناندوا الاختلافَ في عيونهم، فخاطبهم:

- يبدو أنّ الأمور بينكم قد بلغت مبلغًا كبيرًا من التعقيد.

نظرَ الكاردينال ناحية الكونت تنديا وفترَ ثغرُه عن ابتسامة قائلًا:

- جلالةُ الملك ليس بيننا اختلاف نهائيًّا، جميعُنا نعمل من أجل الإيمان المقدس ومِن أجل الملكين وبلادنا، أحيانًا نختلف في وجهات النظر لكنّ قضيتنا واحدة، أليس كذلك أيها الكونت تنديا؟

مازالت كلماتُ الكاردينال ترنّ في أذني الكونت تنديا، فما وسعَه إلّا الموافقة على ما قاله الكاردينال خمنيس:

- نعم قداستك، كلّنا نعمل على تطهير تلك الأرض من الهراطقة وعودتها إلى أحضان الكاثوليكية كما كانت قبلَ قدوم أولئك الكفرة إلى بلادنا. ولا يوجد بيننا خلافٌ لكنّها وجهات النظر أحيانًا تختلف.

تهتفُ الملكة إيزابيلا ويعْلو وجهها الابتسامة والرضا بما حققته من إنجازات:

- قداسة الكاردينال، فليحفظك الرب، أخبرني ما مستجدات الأمور في غرناطة؟ متى يأتي اليوم الذي لا أرى فيه الكفرة المحمديّون في بلادنا؟!

بدتْ على وجه الكاردينال ملامحُ الرضا:

- قريبًا يا ابنةَ الكاثوليكية البارّة، لكنّ الأمر يحتاج من جلالتكم الموافقة على إدخال ديوان التحقيق إلى غرناطة لمحاسبة أولئك الكفرة على عنادهم وكفرهم، والأندلسيون لا يمكنهم أن يستمرّوا في البقاء في قشتالة مسلمين في وسط مسيحيّين، لقد هبّ الأندلسيّون بانتفاضة في حي البيازين لعرقلة عملية التنصير، حينما رأونا نعيدُ تلك الخراف الضالّة إلى حظيرة الإيمان المقدس.

لم تكنْ إيزابيلا بحاجةٍ إلى إقناع بضرورة إدخال الديوان المقدس في غرناطة، فهتفت قائلة:

- لا يمكننا أن نقبلَ بوجود رعايا في مملكتنا يدينون بديانة أخرى.

ظلّ الكونت تنديا لائذًا بالصّمت وقد تاهتْ أفكاره طوال الاجتماع، لم يشاركهم في الحوار، حانتِ التفاتة من الملكة إيزابيلا ناحيةَ الكونت تنديا فوجدته شاردَ الذهن.

– الكونت تنديا، ما لي أراك شاردَ الذّهن منذ مجيئك إلى هنا؟!

ذهبَ الاضطراب بالكونت تنديا كلّ مذهب، لم يدرِ بماذا يجيب فلاذَ بالصمت، طرحت الملكةُ إيزابيلا السؤال ثانية:

– كونت تنديا، ما بك؟

استغرقَ في أفكاره مرتبًا لها، ثمّ قال:

– لا شيء جلالة الملكة، لكنْ كنت قد وعدت الأندلسيين برفع شكاياتهم إلى جلالتكم، لكنْ يبدو أنّكم متفقين على سياسة الكاردينال خمنيس.

هبّ الملك فرناندو واقفًا، ومشى بضعَ خطوات ووقفَ قبالة كرسي الكونت تنديا، فشرع الكونت في النهوض، فأشار له الملك بالجلوس وقال:

– كونت تنديا، نحن نقدّر جهودك طيلة السبع سنوات الماضية، لكن نخشى أن يستفحلَ أمرُ أولئك الأندلسيّين فيهدّدون أمنَ واستقرار قشتالة، واتّباع اللين معهم بعدَ انتفاضتهم لن يحملَ لنا سوى انتفاضة أكبر وأخطر، وهُم مَن اضطرونا لتغيير سياسة اللين معهم.

قطبَ المطران طلبيرة ما بينَ حاجبيه وقال:

– لكنْ يا سيدي الملك، إنّ حبرَ المعاهدة التي وقّعناها معهم لم يجفّ، وأخشى أن يعيرنا ملوك أوروبا على خرق المعاهدة.

قالَها المطران إيرناندو دي طلبيرة بنبرةٍ هادئة وحازمة تردّد صداها في الأرجاء، فدوّت ضحكةٌ من الملك فرناندو حتّى كادت جلجلةُ ضحكاته تصطدم بسقف القاعة:

- قداسة المطران دعْني أجيبك، هُم مَن خرق المعاهدة بانتفاضتهم في حيّ البيازين، ودعْك من ملوك أوروبا فليذهبوا للجحيم، ومِن الآن لن نترك في غرناطة مسلمًا واحدًا، سنشنّ حربًا ضروسًا على كلّ مَن تمرد علينا.

مرّر المطران طلبيرة بيدِه على الصّليب المتدلّي من عنقه قبل أن يتكلم:

- جلالة الملك، نحن بتلك الطريقة سنجعلُ الأمور تزداد تعقيدًا، وعندها سنخوض حربًا شرسة معَ أناس ليس لديهم شيء ليخسروه، ونحن في غنى عن الخسائر في الأرواح والأموال فسنحتاج كلّ ذلك في فتح الأرض الجديدة.

دوّى صوتُ الملكة في القاعة حاسمًا، وهتفت بحدّة:

- هذا خطأ وقعَ فيه الأندلسيون، هُم من انتفضوا وقتلوا مفوّض الشرطة، وهل يجدر بنا أنْ ننتظر أن يقوموا بثورةٍ جارفة في ربوع غرناطة؟، قداسة المطران لقد قُضيَ الأمر، فلتدعْ إنهاء ذلك الأمر لقداسة الكاردينال.

انفرجتْ أسارير الكاردينال مبتهجًا بحديث الملكيْن، وقد حصل على ما كان يريد:

- سأحشد كلّ طاقتي لسحقِ أولئك الكفرة، واستعادة بلادنا التي دنسها الهراطقة لإرجاعها إلى حظيرة الإيمان الصحيح.

أطبقَ على القاعة صمتٌ ثقيل، قطعه فرناندو بصوته الجهْوري وهو يهمّ بالجلوس على كرسيه، وقد تثوره الغضب:

– الأندلسيّون أمامهم خياران لا ثالث لهما؛ إمّا أن يقبلوا بالتنصر ويصيروا رعايا لمملكة قشتالة، أو يتم ترحيلهم إلى عدوة المغرب.

عادَ الركب إلى غرناطة حاملًا الخيبات للأندلسيّين، وحاملًا الويلات، لقد أدار الزمان للأندلسيّين ظهر المِجَنِّ، وأقبلَ عليهم الكاردينال كمفترس فُكّ وثاقه، فبدأ حملته بفرض التنصير عليهم بعد ما لاقى من دعم من الملكين، وأخفقت مساعي الكونت تنديا في طلبِ العفو عن الثائرين، فأدركَ الأربعون بأنّها ستكون حربًا ضروسًا، فالتحقوا بالجبال، وأشعلوها ثورةً في ربوع جبال البشرات.

***

الكاتدرائية

عادَ الكاردينال خمنيس من إشبيلية كبركانٍ ثائر يتفجر حممًا، ككلب أُرهق فعضّ، أرهقته المقاومة التي وجدَها من الغرناطيّين، دلف خمنيس إلى غرفته وألقى بجسده المُنهك على كرسيه الوثير، وألقى برأسه إلى الوراء، وظلّ محدقًا في سقف الغرفة التي عشّشَ فيها الظلام، دارتْ برأسه الأفكار، أراد أنْ ينهي أمر غرناطة سريعًا، ظلّ على حاله تلك لبعض الوقت، لمعت عيناه ثمّ ندّت عنه ابتسامة شيطانية ثمّ علت ضحكاته معلنةً انتصارها على الصّمت الذي خيّم على المكان، لقد تفتّق عقله على عمل سيسحق به الغرناطيّين.

قرعَ الكاردينال الجرسَ الفضي، كان على عجلةٍ من أمره، مرّت عليه اللحظات كسنوات طوال، فأعادَ قرع الجرس مرّة ثانية، أقبل سالثيدو مهرولًا تدور برأسه الأفكار، ودخل سالثيدو واقترب من الكاردينال، وقال:

- أمرُ قداستك.

- أريدُ منك أن تجمع كلّ الكتب العربية الموجودة في غرناطة.

- وماذا سنفعل بها يا سيدي؟

انفرجتْ أسارير الكاردينال ونهضَ من مجلسه، وأمسك بكتاب ورفعه عاليًا وقال:

- لنْ يمكننا تنصير أهل غرناطة دون قطع ارتباطهم بتاريخهم وثقافتهم، والأمة القارئة لا تُهزم أبدًا، ونحنُ نريد لتلك العقول أن يغزوها الجهل فيسهل علينا إخضاعُهم لما نريد، فلتخبر الكونت تنديا ليعمل على جمْع كلّ الكتب من أحياء غرناطة.

- أمرُ قداستك.

***

حيّ البيازين

جلبةٌ في كلّ مكان، جنودٌ تهرول في شوارع غرناطة، لاحظَ عبد الرحمن ذلك وهو في طريقِه إلى دكانه في سوق المدينة..

- يبدو أنّ المدينة ستشهد عرضًا عسكريًّا اليوم.

هتفَ بها عبد الرحمن محدثًا نفسه.

وطئت قدمَا عبد الرحمن السوقَ ففزع لما رأى، جنود في كلّ مكان، تقتحم دكاكين الوراقين تجمعُ الكتب وتكدّسها في العربات. اقترب عبد الرحمن من دكان صديقه محمد الذي كان واقفًا قد خيّم عليه الحزن، كتب تداسُ بالأقدام، قوارير الحبر انسكبت في كلّ مكان.

- لماذا يفعلون هذا يا محمد؟!

التفتَ محمد إلى عبد الرحمن محدثًا:

- أمرُ الكاردينال، إنهم يجمعون كلّ الكتب من دكاكين الوراقين والمنازل.

اقتربَ محمد أكثر من عبد الرحمن وهمس في أذنه:

- أنقذْ ما لديك من الكتب يا أبا محمد.

هرولَ عبد الرحمن في طرقات المدينة، جنود يقتحمون المنازل بحثًا عن الكتب، يكاد عقله يطيش من هوْل ما رأى، لقد أقدم الكاردينال وجنوده على جمع الكتب وتكديسها في أكوام في حي باب الرملة.

- لن أسمح لهم بأخذ كتابٍ من كتبي، الكتاب أغلى ما أملك، الكتب عصارة ما تفتّقت به الأذهان على مر العصور.

قالَها عبد الرحمن وهو يحثّ الخطى إلى بيته، ودلف سريعًا إلى الداخل فوجد زوجه فاطمة تداعبُ صغيرها محمد تحتَ شجرة الرمان، فراعها منظر زوجها وقالت:

- يا أبا محمد، ماذا حدث؟ ما لي أراك تأتى مهرولًا على غير عادتك؟!

- مصيبة حلّتْ علينا، إنّهم يجمعون الكتبَ يا فاطمة من كلّ أحياء غرناطة، ولن أسمحَ لهم بالاستيلاء على كتاب من كتبي.

زوتْ فاطمة ما بين حاجبيها وقالت:

- لماذا يفعلون ذلك؟

- يريدون قطعَ صلتنا بتاريخنا، وسلْخِنا من هويتنا، هُم يريدون أمّة أقرأ لا تقرأ، ليسهل عليهم امتلاكُ تلك العقول، يريدونَ للجهل أن يسيطر على عقولنا لنكون لهم تبعًا.

- وماذا سيفعلون بالكتب؟

- سيحرقونها يا فاطمة، هؤلاء لا يقدرون قيمة الكتاب، كيف لجاهل أن يقدر قيمة العلم.

هولُ الكارثة عقدَ لسانها عن الكلام، فهتف بها عبد الرحمن:

- هيّا يا فاطمة، ليس لدينا الكثيرُ من الوقت، ولنعمل على نقل الكتب إلى المخبأ السّري، لقد أتى الزمان الذي احتجنا له.

بدأ عبدُ الرحمن وزوجه بإنزال الكتب من أماكنها، وظلّا ينقلان الكتب طيلة اليوم في الغرفة التي أعدّها عبد الرحمن تحسّبًا لظرف كهذا، بلغ الجهدُ منهما بعد ذلك العمل الشّاق، خرج عبد الرحمن من الغرفة وأدارَ المفتاح في الباب ليحكم إغلاقه، ثمّ قام بتحريك عصا تحملُ سراجًا كانت مثبتة في الحائط، فتحرّك الجدار وعاد لوضعه الأول.



ساحةُ بابِ الرملة

اكتظّت الطرقُ المؤدّية إلى ساحة باب الرملة بالقشتالة الذين استوطنوا غرناطة، أتوا ليشهدوا حرقَ الكتب التي جمعها رجال الكاردينال خمنيس، وكلّ ما وجدوه في المكتبات ودكاكين الورّاقين والمنازل، توافدتِ العربات التي تجرّها الأحصنة والبغال محملة بالكتب والمخطوطات من كلّ ربوع غرناطة، فتكدّستْ ساحة باب الرملة بالكتب.

وقفَ جبل شلير بقامته التي تناطحُ السحاب، من بعيدٍ ظلّ يراقب ساحة باب الرملة، ظلّت العربات تأتي بكلّ تلك الكتب والمخطوطات طيلة اليوم، أيادٍ آثمةٌ لا تقدر العلم، تقذف بالكتب أرضًا، وأقدام نجسةٌ تدوس على الكتب، أهانوا الكتب فأغلقت صفحاتها وطوتها، ولن تفصحَ عمّا بها من كنوز، سيطويها الزمان ويدفنها التاريخ في حناياه، راقبَ كلّ ما يحدث ليظلّ شاهدًا على مرّ الزمان على ما فعله الكاردينال الهمجي الذي أضاعَ على البشرية سنواتٍ من البحث والتدوين كانت كفيلة لجعل مملكة قشتالة في مصافّ الممالك المتقدمة، لكنْ كان الجهل قد تربّع على عرشها آخذًا بحطامها إلى الظّلام.

أُضرمتِ النار في الأكوام، تصاعدتِ الأدخنة مُحدثة غيمةً سوداء حجبت نور العلم عن تلك المدينة التي كانت يومًا ما منارةً للعلم أضاءت ربوع أوروبا.

وقفَ عبد الرحمن بين الجموع يحترق داخله على تلك الكتب، مصاحف بديعة مزخرفة وكتبٌ في التفسير والحديث والعلوم الأخرى، ودّ لو افتدى كلّ تلك الكتب، أراد أن يحترق وتبقَى الكتب كما هي، ما هوّن عليه أنه استطاع أن يحافظ على مكتبته التي ورثها عن والده، لكنها أقدارُ الله تجري على العباد بنواميس كتبت قبلَ خلق الخلق، وراحت عشرات الألوف من الكتب ضحيةَ ذلك العمل الهمجي، هي خلاصةُ ما بقيَ من تراث الفكر الإسلامي، بأمرِ من الكاردينال أحرق نتاج ثمانية قرون من العلم والبحث والتدوين، ظلّتَ النيران ترعى في تلك الأكوام المكدّسة من الكتب طيلة اليوم.

ظلّت تلك المشاهدُ محفورة في ذاكرة عبد الرحمن، لن ينسى.. وكيف له أن ينسى؟، كلّ يومٍ يزيد الظلام عن اليوم الراحل.

***

الفصلُ الثّالث

غرناطة

"إنّنا مجبرون على أنْ نصلي معهم في شعائرهم بدون غُسل،
وأنْ نوقّر أوثانهم المرسومة، ومهزلة الخفي العظيم
لا أحد يتجاسر على الاعتراض،
ولا أحد يجرؤ أنْ يقول كلمة واحدة.
مَن ذا الذي يستطيع أن يُعبّر عن الكرب
الذي كُتب علينا نحن المؤمنين بالله؟!"

أنشودة موريسكية

أرخى الليلُ سدوله على المدينة، وأقبلَ الظلام بجنوده وخفقت راياته، وغارت النجوم وهدأتِ الأصوات وسكنتِ الأنفاس، وأوى الناسُ إلى منازلهم، تحت جنح الليل اجتمع قادةُ انتفاضة البيازين بعد أنْ أدركوا ما يحاق بهم من قِبَل الحكومة القشتالية، توافد القادة الأربعون على منزل عليّ الغرناطي الذي كان يقطع بهوَ منزله ذهابًا ومجيئًا، جلس كلّ واحدٍ منهم في مجلسه، وهبّ علي الغرناطي واقفًا وقد بدا الغضبُ واضحًا على وجهه وهتف قائلًا:

- لقد خدعنا الكونت تنديا، لقدْ كانوا يماطلون ليكسبوا وقتًا ليتشاوروا فيما بينهم، ونحن أعطيناهم ما أرادوا.

تحدّث الشيخ الزبيدي:

- هوّن عليك يا أبا سعد، ما حدثَ قد حدث وانتهى، الآن هم يخطّطون للإيقاع بنا في شراكهم، وأرى أنّه وجب علينا أنْ نترك غرناطة ونتّجه إلى قرى البشرات لنحذّر الناس هناك ممّا يُراد بهم، ولنكون حائط صدّ عن القرى.

أدركَ إبراهيم بن أميّة ما يرمي إليه الشيخ الزبيدي فهتف قائلًا:

- ونعمَ الرأي يا شيخنا، إنّهم سيتّجهون إلى القرى ليحكمَا القبضة على غرناطة وتوابعها؛ لذا علينا إرهاقهم وسنذيقهم العذاب عندما نعيد إشعال الثورة في قرى البشرات والجبال الحمراء.

هتفَ علي الغرناطي بعد أن رأى الإجماع على رأي الشيخ الزبيدي في عيون الجالسين:

أرى أن ننقسم إلى مجموعتين؛ المجموعة الأولى عليها الذهاب إلى قرى البشرات، والثانية ستذهب إلى قرى الجبال الحمراء، وسأنطلق أنا والشيخ الزبيدي إلى قرية غونخار، وإبراهيم بن أميّة سيذهب على رأس مجموعة إلى الجبال الحمراء، ويجب أن نعجّل في الأمر قبل حلول الصباح.

وقبلَ أن تنفرج ظلمة الليل عن غرناطة رحلَ القادة إلى القرى والجبال في الجنوب، ليعيدوا إشعال الحرب على قشتالة مرة أخرى.

ووجدَ أهلُ مدينة غرناطة أنفسهم في وضع كانت فيه فرص الاختيار ضئيلة جدًّا، خياران كلاهما مرّ، ورضخ معظمً الأندلسيّين للقرار الذي تمّ اتخاذه من قِبَل الملكين، ورضوا بالتنصير.

***

حيّ البيازين

تحتَ أشعة شمس الصباح بدتْ مدينة غرناطة وكأنّها خارجة من أحد كتب الزخرفة، كانتَ أشعةُ الشمس تصطدم مباشرةً بالأسوار العالية فتزداد الحجارة اقترابًا من اللون الذّهبي، كانت المدينة قد ازدانتْ بتفتح الأزهار، أصبح الناسُ لا يعيرون كلّ هذا الجمال اهتمامًا، لقد غدتْ حياتهم جحيمًا، منذُ أن تمّ تخييرهم بين التنصير أو النفي إلى عدوة المغرب.

انفرجتْ ظلمة الليل عن سنا الإشراق، وتنفّس الصبح أنفاسه الباردة في أرجاء المدينة، وأشرقت شمس يوم جديد.

خرجَ عبد الرحمن من بيته، لم يلتفت إلى شيء من زخرفها، ولم يلقِ له بالًا، أظلمت الدّنيا في عينه يومَ أن تنكرت لهم غرناطة وتبدّل حالها، فجال بخاطره قول ابن خفاجة الأندلسي:

عاثت بساحتك الظبا يا دار

ومحا محاسنك البلا والنار

فإذا تردد في جنابك ناظر

طال اعتبار فيك واستعبار

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها

وتمخضت بخرابها الأقدار

كتبت يد الحدثان في عرصاتها

لا أنتِ أنتِ ولا الديار ديار

ورضيتْ غرناطة بالنواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفى مساجدها الصور والصلبان بعدَ ذكر الله وتلاوة القرآن، فكمْ فيها من عينٍ باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين، أمَا لقلبك أن يلينً لتلك المآقي التي ذرفت الدمع الغزير، لماذا تفعلين بنا هكذا؟!، هل يعبد أبناؤنا وبناتنا الصّلبان ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير والميتات، ويشربون الخمر أم المنكرات، فلا نستطيع منعهم أو زجرهم خشية العذاب الأليم..؟، وأنتِ يا غرناطة راضيةٌ بفعلهم هذا أم مجبورة، وأظلمتِ يا غرناطة يومَ انطفأ منك نور الإسلام، ورحلَ منكِ الإيمان، وأظلمتِ يا غرناطة كظلمة القبر، وخفتَ نورك الذي أضاء على مدى الأزمان.



إشبيلية

أقبلَ خوسيه مهرولًا على غير عادته، قاطعًا ممرّات القصر متجهًا إلى بهو السفراء، يحملُ في يديه رسالة من المطران طلبيرة، وأخبره الجندي الذي أتى بها أنّ الأمر لا يحتاج إلى تأخير.

يجلسُ الملك فرناندو والملكة إيزابيلا يتناقشان في أمر الأرض الجديدة، وما أخبرهما به الجنوي كولومبوس عنْ مقدّرات الجزر التي سيستولي عليها، وعدّد لهم كمّ الذهب الذي سيحصلُ عليه، ليحرّرا به مدينة أورشليم من أيدي الكفرة.

دلفَ خوسيه إلى بهْو السفراء حاملًا الرّسالة التي أرسلها المطران طلبيرة إلى الملكين، جثا خوسيه على ركبتيه وهتف:

- جلالة الملك، لقد أرسلَ قداسة المطران إيرناندو دي طلبيرة رسالة من غرناطة، ومَن حمل الرسالة يقول إنّ الأمر خطير.

هبّ فرناندو من مجلسِه، وسار بضعَ خطوات إلى حيث يجثو خوسيه، والتقط الرسالة من يديه، وفضّها وشرعَ في قراءتها على مسامع إيزابيلا:

"جلالة الملكين، حفظكما الربّ، ودمتما حاملينَ مشاعل الإيمان المقدّس في ربوع الأرض، أسطّر لكما رسالةً أردت أن أشرحَ فيها ما قد طرأ على ساحة البلاد جرّاء الإسراع بعمليةِ التنصير لعموم الشّعب الغرناطي، إنّ النجاح الذي حققه قداسة الكاردينال في العاصمة لا يمثل ما سوف يحدثُ في الريف

والجبال، وإنّ طائرًا واحدًا من طيور السنونو لا يصنع الصيف، إنّ أهل الريف يختلفون عن أهل العاصمة بما يحملون من حميّة لدينهم أتتْ من وعرة حياتهم وشظفِ العيش، فأردتُ أن أنصح لكم. لقد أشعلَ أهل البشرات والقرى في الجبال الثورة، وعملوا على مهاجمة الكنائس وحرق الأديرة، لقد أخبرتكم من قبل أنّ ما يسعى إليه الكاردينال خمنيس يجرّ علينا حروبًا ضروسًا».

أسطّر لكم من غرناطة

التي هي في الحقيقة مجرّد قشرة رمان فارغة

المطران إيرناندو دي طلبيرة

امتقعَ وجهُ الملك فرناندو بعدَ أن أنهى الرسالة، وثار غضبه، وصرخ في إيزابيلا قائلًا:

– الكاردينال خمنيس الذي اخترته كلّفنا الكثير، لقد قادنا لحربٍ في الجبال، فتعصبه سيجعلنا نخسرُ كلّ ما حقّقناه في الأعوام الماضية.

نهضت إيزابيلا وأشارت إلى خوسيه فانصرف، واتجهت إلى فرناندو قائلة:

– ذاك كان متوقّعَ الحدوث، لقد فعلها قادةُ انتفاضة البيازين الذين فرّوا إلى الجبال ليشعلوا الثورة من جديد، لقد غدتْ غرناطة مدينة نصرانية، كلّ المساجد حولت لكنائس، أهلها غدوا مسيحيّين، ويذهبون إلى الكنائس، ويمكن لفرقةٍ من الجند أن تبيدَ تلك القرى، ولترسل إلى حاكم المدينة الكونت تنديا ليأخذ فرقة من الجيش ليسوّي بتلك القرى الأرض، ومِن

جانبي سأرسل القائد غونثالو القرطبى ليخمد تلك الثورة قبلَ أن يستفحل أمرُها، أرأيت كيف تصرّفت زوجتك وحلّت تلك المُعضلة التي جعلتك تصرخ.

علتْ وجه فرناندو الابتسامة وقال:

– مَن لديه ملكة بتلك العقلية لا يخشى شيئًا.

دوّت ضحكات إيزابيلا فجلجلتِ القاعة، وهي تحملُ في يديها كأسين من النبيذ، فدفعت إلى فرناندو كأسًا، فأفرغه في جوفه مرّة واحدة.

وصفّقت إيزابيلا بيديها، فدخلت جاريتها مهرولة، فانحنتْ أمام الملكة وانتظرت أن تسمع ما ستقوله الملكة:

– لتخبري جنديًا فليستدْعِ لي القائد غونثالو القرطبى.

– أمرُ مولاتي.

***

ثورةُ البشرات الأولى

دقّتِ الأجراسُ في الكنائس، وترنّم الرهبان في المجامع، واحتفل الكاردينال خمنيس بتحوّل غرناطة إلى مدينة نصرانية، وكانت الثورة في البشرات تنتشر، ككومةِ قشّ أُلقي فيها عودُ ثقاب، وغادرَ البعض المدينة وقرّروا الالتحاق بإخوانهم في جبال الجنوب.

وصلَ زعماء انتفاضة البيازين إلى الجبال، محذّرين أهلها أنّ التنصير الذي حدث في غرناطة سيعمّ كلّ القرى في الجبال، اجتمع قادةُ الثورة في البشرات لبحث سُبل تأمين القرى والتصدّي لجيش قشتالة، تكلم الزبيدي قائلًا:

- ملوك قشتالة لا يوفون بأيّ عهد، فيلزمنا الحذر ولن نستسلم أبدًا.

هتفَ علي الغرناطي قائلًا:

- لقد خضتُ حروبًا من قبل، ونحن الآن في وضع سنكون نحن محاصرين، فيلزمنا العملُ على تأمين القرى، ويمكننا استغلالُ وعرة الجبال لصالحنا، ولنبدأ من الآن.

اشرأبّت أعناقُ الجالسين إلى عليّ وهتفوا جميعًا:

- وهل لديك خطة يا أبا سعد؟

قامَ علي وأحضر خريطةً كان قد رسمَها للجبال والقرى، ونشرها أمام المجتمعين قائلًا:

– إنْ حرّكت قشتالة الجيوش فلا بدّ أن تصطدم تلك الجيوش في البداية بقرية (غويخار ــــ سيرا)، فيمكننا أن نبدأ بحفرِ خنادق حول المدينة، ومن ثمّ نقوم بتغطيتها بالزّروع والقش، ولن يفطن الَجيشُ القشتالي لتلك الخدعة، وعند مهاجمته للمدينة ستزلّ الأقدام وتسقط الخيول في الخنادق، وستعمّ الفوضى في الجيش القشتالي، عندها نفتح الأبواب ونهاجم الجيش.

أثنى القادةُ على خطّة علي الغرناطي، وشرع أهلُ المدينة في حفر الخنادق تحسبًا لمهاجمة الجيش القشتالي.

***

حيّ البيازين

خيّمَ الليلُ سريعًا على المدينة، مُرخيًا سدوله على منازلها، ليلة مقفرة لا قمرَ فيها، جلس عبدُ الرحمن في حديقة منزله، طرقاتٌ على الباب، قام عبد الرحمن تاركًا ما كان يصنعه مِن إعداد المشروب السّاخن لصديقيْه، يبدو أنّهما أتيا، هتف عبد الرحمن:

- إنّي آت.

وقامَ ليفتح لهما الباب، حرّك عبد الرحمن المزلاج، وفتحَ الباب فدار على محوره محدثًا صريرًا.

دلفَ محمد وعامر يتبعان عبدَ الرحمن إلى الداخل، جلس ثلاثتهم متحلقين حول النار التي أوقدها عبدُ الرحمن ليعدّ لهما شرابَ اللوز الساخن، كان محمد أول مَن تحدث:

- يا أبا محمد، ماذا نفعل، فغدًا سنذهب إلى الكاتدرائية، إنّني أفضل الموت على ترك ديني.

خيّم الصمت فجأة، ولم يقطعه إلّا فرقعة الحطب في النار، وبدتِ السماء بعيدة وكأنها ترتجفُ من هوْل السؤال، قال عبد الرحمن بعد برهة:

- يا محمد، لن نتخلّى عن ديننا، إنّنا الآن في وضع صعب سنجبر عليه، وخمنيس قد نجحَ في كلّ خططه، فليس أمامَه إلّا الخطوّة الأخيرة، وأنت ترى أننا مستضعفون لا نملك سلاحًا لنجاهدهم به.

التفتَ محمد إلى عامر، وبدأ عليهما الاندهاش من كلام عبد الرحمن، فأردف عبد الرحمن قائلًا:

- أعلمُ سبب الاندهاش الذي في عيونكما، لن نستسلم بتلك السهولة، نحن في حالة إكراهٍ، وقد قال ربنا ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، فلنجاري الكاردينال فيما أراد.

هتفَ عامر:

- لن يمكننا حينها ممارسة شعائرنا، ولن يتركنا الكاردينال حينها.

عادتْ كلمات الشيخ الصقري إلى ذاكرة عبد الرحمن فهتف قائلًا:

- أذكرُ مقولةً للشيخ الصقري في آخر لقاءٍ جمعني به (**لقد علمتكم ما تحتاجون إليه في أموركم، لقد أديت الرسالة التي عليّ، وإذا أردتني في يوم من الأيام فلتنظرْ في نفسك ستجد ما علّمتك إياه، إنّه ينتظركم يا بني أهوالٌ جسام، ولن يتوانى خمنيس في إبعادكم عن دينكم وثقافتكم، لقد رأى في غرناطة الشيء الذي سيخلّد اسمه على مرّ الأزمان، لكن سيخلد اسمه على جثث الآلاف من منكم، فلتكن يا بني ممّن يدافع عن الإسلام بحكمة**).

هتفَ عامر ومحمد بصوت واحد:

- رحم الله الشيخ الصقري.

وأردف عبد الرحمن قائلًا:

- لقد أتى وقتُ الحكمة، لقد كانت لدى الشيخ بصيرة ثاقبة، مكنته من معرفة مآلات الأمور في غرناطة، لذا وجبَ علينا أن ندافع عن الإسلام لكن بحكمة، الآن لا يمكننا الوقوفُ في وجه خمنيس، ولكن يمكننا مجاراته فيما يريد، وسنفعل نحن ما نريد.



غونخار

انطلقَ القائد غونثالو دي قرطبة بقوّاته متجهًا إلى مدينة غونخار، وهو لا يشكّ أن النصرَ سيكون حليفه، لم ينتظرْ قدوم الكونت تنديا بقواته، سار بقواته عبر الجبال القاسية، اقتربَ من حدود المدينة وأراد أن يصدمَها صدمة شديدة، فأعطى الإشارة فانطلقتْ قوّاته بتطويق المدينة، وحدثَ ما لم يكن في حسبانه، ووقع في شراك الخنادق.

عادَ قائد الفرق الاستطلاعية في جيش القائد غونثالو دي قرطبة إلى مقرّ القيادة:

- سيدي القائد، لقد تحطّم جزءٌ من مقدمة الجيش، لقد وقع جنودنا في الخنادق المحفورة وهُم يطوقون المدينة، وفتح الأندلسيون الأبوابَ وهاجموا الجنود وحدثت مقتلةٌ عظيمة، لقد تقهقرتْ بالجنود الباقين إلى الوراء.

هبّ غونثالو واقفًا وصرخ:

- كيف حدث هذا؟ لم نعهدِ الأندلسيّين أربابَ قتال، لقد سلموا لنا غرناطة ولم تنشبْ بيننا وبينهم حرب، مِن أين أتتهم العزيمة؟!

- سيدي، لن يمكننا التقدّمُ الآن، فالجنودُ ما بين جريح وقتيل، لقد فقدنا عنصر المباغتة.

تملّك القائد غونثالو الغضب، وهتف صارخًا:

لنْ يمكننا تركُ المدينة، سنطوقها أيّها القائد وليكنْ وجودك أنت بعيدًا عن مرمى السهام والبنادق، وننتظر قدومَ الكونت تنديا بقواته، ولنرى كيف ستثبت المدينة.

- أمرُك سيدي.

***

الكاتدرائية

دلفَ عبد الرحمن إلى الكاتدرائية معَ جموع الأندلسيّين، لم يدخلْها منذ أن تحوّلت إلى كاتدرائية، قلّب ناظريه في المكان الذي تغير كثيرًا، عاودته الذكريات السعيدة، هنا جلس معَ شيخه، في هذا المكان حفظ سورة الفاتحة، هنا...... وهنا..........

دخلتْ جموع الأندلسيين إلى الكاتدرائية، لقد أجبرهم الكاردينال خمنيس للحضور إلى الكاتدرائية لتعميدهم، جموعٌ لا تملك لنفسها شيئًا، الكلّ ما بين باكي ومبهوت، فبعد كلّ هذا العمر يجبرُ على تغيير دينه، لعنته القلوب وصرخت ألَا لعنة الله عليك أيها الصّغير، أنت مَن فعلت بنا ذلك، كان الأجدرُ بك أن تخوضَ غمار المعارك وكنّا سنخوضُها معك، حينها كان موتنا أشرفَ ممّا آلت إليه الأمور، يا ليتنا أطعْنا موسى بن أبي غسان، لقد كان لنا ناصحًا أمينًا، ألم يقلْ لنا «**لا تخدعوا أنفسكم، ولا تظنوا أن النّصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامةِ مَلِكِهم؛ إنّ الموت أقلّ ما نخشى؛ فأمامنا نهبَ مدنَنا وتدميرها، وتدنيس مساجدنا، وتخريب بيوتنا، وهتك نساءنا وبناتنا، وأمامَنا الجورُ الفاحش والتعصّب الوحشي، والسياط والأغلال، وأمامنا السجون والأنطاع والمحارق، هذا ما سوف نعاني من مصائب وعسف، وهذا ما سوف تراه على الأقلّ تلك النفوس الوضيعة، التي تخشى الآنَ الموت الشريف، أمّا أنا فوالله لن أراه**».

واقفٌ بين الجموع متحسّرًا على حياته، صرختْ به نفسه كيف تركت دينك يا عبد الرّحمن؟، ذرفَ الدّموع الغزيرة على حاله، بينما هو على حاله كذلك، صرخ أحد الكهنة وابتسامة خبيثة لا تفارق وجهه:

– فلتنصتوا لعظةِ قداسة الكاردينال خمنيس، ولتكونوا أبناء بارّين لأمّنا الكنيسة.

أتى الكاردينال خمنيس يختالُ في مشيته مرتديًا أثوابَه الحريرية الحمراء الموشّاة بخيوط الذّهب، وممسكًا بصليبٍ في يده وارتقى المنصة وشرع في عظته:

– شعبَ الكنيسة، مرحبًا بعودتك، لقد سعينا لتخليصكم من الخطيئة التي لحقت أرواحَكم، وأقول لكم كما قال بطرس من قبل «**تُوبُوا وَلْيَعْتَمِدْ كلّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَلَى اسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ لِغُفْرَانِ الْخَطَايَا، فَتَقْبَلُوا عَطِيَّةَ الرُّوحِ الْقُدُسِ**».

سيشرعُ الرهبان في تعْميدكم، ولتعلموا أنّ المعمودية ختم أبديّ، لن ينفك عنكم حتى المات.

أنهى الكاردينال خمنيس عظتَه سريعًا، واتّجه نحوهم ممسكًا بإناء به ماءٌ يتبعه الرهبان يفعلون مثله. أقبلَ خمنيس ناحيته ورفعَ الصّليب الذهبي الذي يحمله في يده، وقرّبه من وجهِ عبد الرحمن الذي رفعَ عينيه لتقابلَ عيني الكاردينال، ووضع الكاردينال يده على رأسِ عبد الرحمن ليباركه فارتجفَ عبد الرحمن، وهتف به الكاردينال ليباركك الربّ يا ألفونسو، ثمّ دوّت ضحكاته فجلجلت أرجاء الكاتدرائية.

مدينةٌ غونجار

اعتلى عليّ الغرناطي أسوارَ المدينة، وتطلّع إلى الجيش الذي أحكم الحصار وضيّق الخناقَ حول المدينة، أقبلَ الشيخ الزبيدي إلى حيث يقف القائد على قائلًا:

– ماذا سنفعل أيها القائد؟

انفرجتْ أسارير علي الغرناطي وهتف:

– المقاومةُ يا شيخ، لن يعبرَ الجيش القشتالي إلّا على جثثنا هكذا تعاهدنا، إن غونخار بوابةُ قرى البشرات، هي كرابطةِ العقد إنِ انفرطت ضاعت حبّاته، ولن تأتي الهزيمة من قبلي.

أقبلَ جنديّ مهرولًا:

– سيّدي القائد، سيدي القائد...

التفت القائد عليّ والشيخُ ناحية الصوت:

– سيدي، لقد أتى المددُ للجيش المحاصر للمدينة، وأتوا بالمدافع وبدءوا في نصبها على مقربةٍ من أسوار المدينة.

– لتبدأ قوّات الرماة بأمطارهم بالبارود والسهام.

– أمرُك سيدي.

اتّجه القائد عليّ والشيخ الزبيدي إلى ساحة المدينة ليتأكّدَا من تأمين البوابات الرئيسية.

خارج المدينة

جلسَ القائد غونثالو دي قرطبة في خيمته، وأمامه خريطة للمدينة، لقد احتار في اقتحامها، كانت تحصيناتُها شديدة بفعلِ الجبال التي أحاطت بها، استأذن جنديّ ليدخل، فأذنَ له غونثالو دي قرطبة:

- سيّدي القائد، لقد أقبل شخصٌ من أهل المدينة يقول إنّه يريدك في أمر مهم.

أشارَ القائد للجندي بيده:

- أدخلوه لنرى ما لديه.

دلفَ بدر إلى داخل الخيمة، كان قد ناهزَ الخمسينَ من عمره، انحنى أمام القائد غونثالو، وبدتْ عليه إمارات الرعب وتلعثم في نطق الكلمات:

- سيدي القائد غونثالو العظيم، جئتُ طالبًا الأمانَ لي ولعائلتي، إنني لم أشترك في تلك الثورة، ولستُ راضيًا عمّا يفعله القائد علي الغرناطي وباقي القادة.

انفرجتْ أسارير غونثالو، وأمعنَ النّظر في بدر ليستشفّ هل هذا الرجل صادق أم أرسله له عليّ الغرناطي ليقوده إلى كمينٍ مُحكَم.

- وماذا تريد منّا؟!

هتف بدر:

– الأمانَ يا سيدي.

– لكن كلّ شيء له ثمن.

– أعلمُ يا سيدي، ولديّ الثمن.

ندّت عن غونثالو ابتسامة، وبدا على وجهه الرضا:

– قلْ أسمعك.

تكلّم بدر محاولًا إخفاء اضطرابه:

– سيدي، إنّ المدينة لن تسقط بالحصار، وأسوارها قوية لن يمكنك دكّها بالمدافع.

بدتْ على وجه غونثالو علاماتُ التعجب، لاحظها بدر فصمتَ لبرهة، ثمّ أضاف:

– إنّ المدينة يأتيها الإمدادُ والمؤن والطعام من القرى المجاورة مِن طريق بين الجبال، ولا أحدَ يعلم عن هذا الطريق إلّا مجموعة قليلة من الناس.

لمعتْ عينا القائد غونثالو:

– وكيف تساعدنا يا بدر؟

سارعَ بدر بالإجابة:

– سأدلّكم على الطريق يا سيدي، وسأعملُ على فتح البوابة التي تؤدّي إلى ذلك الطريق.

قال القائد غونثالو محاولًا إخفاءَ الفرح الذي كاد يخرج من عينيه:

– لا شكّ أنّك تعلم الكثيرَ يا بدر عن خفايا الجبال.

انفرجتْ أسارير بدر، وهتف:

– نعم يا سيدي، إنّهم يقولون عنّي أنّي خِرِّيتُ بالطرق، وأعلم عن الجبال أكثرَ ممّا تعلمه هي عن نفسها.

حاولَ غونثالو إخفاء ملامحِ الفرح التي بدتْ عليه، وأبدى عدم التصديق:

– لكنّ هذا لا يبرر إصرارك على مساعداتنا، أخشى أن تكون خدعةً من القائد عليّ الغرناطي ليستدرجنا إلى الطرق الوعرة، ويوقع بنا ونكون صيدًا سهلًا له.

سارع بدر بالإجابة بعد أنْ نلمح في عيني غونثالو عدم التصديق:

– أقسمُ لك يا سيدي أنّي صادق.

بدا على غونثالو الاندهاش:

– ولماذا تفعل ذلك يا بدر؟

لمعتْ عينا بدر، وهتف قائلًا:

– كنّا نعيش بسلام في غونجار حتى قدمَ إلينا مَن قام بالانتفاضة في البيازين، ألهبوا مشاعرَ البسطاء منّا، لعبوا على وترِ الدّين والوطن، فصدقهم الناس، فلوْلاهم ما فرضَ علينا الحصار، واليوم لا نستطيع الخروج من المدينة

لزرع أرضنا، وهلكتِ الدّواب وأحاطتْ بنا الجيوش من كلّ مكان، أصبحت حياتنا صعبة، فجئت إليك سيدي القائد طالبًا الأمان لي ولعائلتي.

- لك ما أردتَ يا بدر، سأخبرك ماذا تفعل.

خرجَ بدر فرحًا مسرورًا بعد أن ضمنَ لنفسه وعائلته الأمان، في حين دوّت ضحكات غونثالو، وهبّ واقفًا وقال:

- إذًا، سقطت المدينة، فخائنٌ واحد يستطيع أن يفعلَ ما لم تستطع الجيوش فعله.

أقبلَ جنديّ مهرولًا ناحية خيمة غونثالو، الذي كان يقفُ خارج خيمته متطلعًا في المدينة المحاصرة، جثا على ركبتيه وقال:

- سيدي، لقد أتى الكونت تنديا بقواته، وأحضر معه المدافع.

علتْ ضحكات غونثالو، وارتفعت يداه في اتّجاه السماء صارخًا بأعلى صوته:

- لن تصمدي طويلًا يا غونخار، لأذيقنّكِ العذاب ألوانًا، لتسمع هذا أيها القائد علي.

ثمّ أضاف قائلًا:

- ليتمّ نصبُ المدافع بعيدًا عن مرمى السّهام والبنادق، وليتمّ تكثيف الضرب على الأسوار، لا بدّ من اقتحام المدينة.

***

داخل المدينة

دعا القائدُ علي الغرناطي كلّ القادة للاجتماع لمناقشة مستجدّات الأمور وماذا سيفعلون لفكّ الحصار عن المدينة بعدَ قدوم المدد لغونثالو، فهتف أحد القادة:

- سيّدي، كيف سنتصدّى لتلك المدافع التي ستمطر الأسوار عمّا قريب؟

صمت القائدُ علي للحظات، ثمّ أجاب:

- دعْ أمرَ المدافع لي، سأتحرّك بفرقة من الجنود في الليل وسأعمل على إشعال النّيران في هذه المدافع، لكنّ الأمرَ الأهمّ الطريق التي تأتينا منها الإمدادات والمؤن التي تجعلنا نقاومُ الحصار أطول مدّة ممكنة، أخشى أن يتمّ كشفها من قِبَل الجيش القشتالي.

هتفَ الشيخ الزبيدي:

- إنّ تلك الطريق لنْ يعلم عنها الجيش القشتالي أبدًا، طريق بين جبال لا تتسع لأكثرَ من خمسة أشخاص بخيولهم، وتلك طريقٌ مهجورة، أغلب أهل المدينة لا يعلمون عنها شيئًا.

أسرعَ القائد علي قائلًا:

- لكنْ أخشى الخيانة، المدينة يمكنها أن تقاومَ الحصار وتتصدى لطلقات المدافع، لكنْ لا يمكنها أن تصمدَ أمام الخيانة، وذلك ما أخشاه.

أقبلَ الجندي المسئول عن فرقة الرماة ناحيةَ القائد علي الغرناطي وقال:

- سيّدي، إنّهم ينصبون المدافعَ بعيدًا عن مرمى السهام والبنادق، ماذا سنفعل يا سيدي؟!

- لنا الله، ليستعدّ كلّ الجنود في الساحة لصدّ الهجوم، ولتعمل على إرسال النساء والأطفال والشيوخ إلى داخل المسجد.

- أمرُك يا سيدي.

أقبلَ الليل يجرّ أثوابه على المدينة، أوى كلّ فردٍ إلى الخدمة التي أوكل بها، هجعت العيون، وسرى السكونُ في المدينة، ومعسكر القشاتلة خارج المدينة، ظلّ علي مستيقظًا يدرسُ كيف سيعمل على تدمير المدافع، أقبلَ عليه ثلة من أفضل مقاتليه، فنشر أمامهم خريطةً قد حدّد عليها أماكن المدافع، وشرع في شرح خطته:

- فلتنظروا جيدًا لتلك الخريطة.

وأشارَ بيده ناحية الأماكن التي سيتمّ مهاجماتها، وأردف قائلًا:

- سننطلقُ بعد منتصف الليل، ولن يتوقع غونثالو ذلك الهجوم المباغت، سنعمل على إتلاف أكبر قدرٍ من المدافع، وستتولّى فرقة من فوق الأسوار تغطيتنا عند عودتنا، فحتمًا ستتبعنا القوات القشتالية بعد أنْ يشبّ الحريق في المدافع، ولتكن القواتُ المناوبة على الأبواب على يقظةٍ من أمرها لفتح الأبواب في الوقت المناسب.

قال أحدُهم متسائلًا:

- وماذا نفعل إنْ لحقت بنا القوات القشتالية قبل أن نصلَ إلى أسوار المدينة؟

أسرع علي مجيبًا:

- سنقاتلهم حتى آخر واحدٍ فينا، ولن يتمّ فتح الأبواب لنا، سنموت ولا يدخل جندي قشتالي إلى المدينة، وليعلم هذا المسئولون عن تأمين الأبواب.

فُتحتِ البوابة الرئيسية، وانطلق عليّ يتبعه بضعُ نفرٍ من رجاله، لتنفيذ الخطة المتفق عليها.



غرناطة

أقبلَ الليل بظلمته بعدَ أن ولّى النهار بضيائه، وعادتِ الجموع من الكاتدرائية حزينة، سارَ عبد الرحمن في طرقات المدينة، الشوارع خالية، لا صوت إلّا صوت قدميه، أراد أن يصرخَ في ظلمة الليل ليقول "بعدَ كلّ هذا العمر يصير اسمك ألفونسو"، لم يقوَ على الصّراخ، كانت كلّ خلاياه قد أصابها الوهن، حالُه كحال الكثيرين من أهل المدينة، عاد إلى بيته ثمّ أسرع ليغسلَ ما علق به من آثار التّعميد، ثمّ توضّأ وأقبل إلى مصلاه السّري، ثمّ كبر وشرع في صلاته.

تسلّل الليلُ سريعًا، مُخلفًا وراءه أجفانًا قد جفاها النوم، وعقولًا يشغلها التفكير فيما آلت إليه الأحوال، وعيونًا دامعاتٍ تجري دموعها غزيرة كنهر شنيل.

وعلى الجانب الآخر، كان الكاردينال خمنيس يتراقص قلبه طربًا على ما حققه من انتصارات، لقد عمّد في يوم واحد أكثرَ من ثلاثة آلاف مسلم، فهتف الكاردينال خمنيس طربًا:

- فلتباركني أيّها الرب، لقد سُقت لك أكثرَ من ثلاثة آلاف موريسكي في يوم واحد.

لكنّه عاد للتفكير ثانية، كيف يجعل هؤلاء عبادًا صالحين؟، لا بدّ من إبعادهم عن كلّ العادات الإسلامية. ثمّ تناول الكاردينال قلمًا وجلس على مكتبه ليخطّ قائمة التّهم التي سيحاسب عليها الموريسكيّين، ويجب التبليغُ عمّن يفعلها.

أرادَ الكاردينال هدمَ تلك الثوابت المتغلغلة في أعماق النفوس، ليقطع الصلة بينهم وبين أيّ شيء يمتّ للإسلام بصلة.

شرع الكاردينال في الكتابة:

- إذا قالوا إنّ الدين المحمدي هو الأحسن، وإنّه لا يوجد غيره للوصول للجنة.

إنّ المسيح كان نبيًّا وليس إلهًا.

إذا قام أحدُ المسيحيّين الذين تمّ تعميدهم ببعض الطقوس الدينية المحمدية كالاحتفال بيوم الجمعة.

إذا ذبحوا الدواجنَ أو الحيوانات، قاطعين العنق بالسكين، ومحولين الرأس نحو الشّرق، وقائلين باسم الله، ورابطين أرجل الحيوانات.

إذا رفضوا أكلَ لحوم الحيوانات غير المذبوحة.

إذا ختنوا أبناءهم أو لقبوهم بأسماءَ عربية، أو أظهروا الفرح بتلقيبهم بتلك الأسماء ونادوهم بها.

إذا قالوا إنّه وجب الإيمان بالله وبمحمد نبيه.

إذا حلفوا بكلّ الأيمان القرآنية.

إذا قاموا بصيام رمضان، وراعوا ذلك أثناءَ عيد الفصح وسلموا بعض الصدقات ولم يأكلوا ولم يشربوا حتى يلاحظوا غروب الشمس.

إذا قاموا بالسحور، واستفاقوا ليأكلوا قبلَ طلوع النهار أو غسلوا أفواههم ورجعوا إلى فرشهم.

إذا قاموا بالوضوء، أو غسلوا السواعد والأيدي حتى المناكب والوجه والأنف والأذنين والساقين.

إذا قاموا بالصلاة وحوّلوا وجهتهم إلى المشرق وتمّ ذلك فوق حصير أو قطعة قماش، ثمّ قاموا ونفضوا رؤوسهم، قائلين بعض الكلمات العربية.

إذا تزوّجوا على المنهج المحمدي.

إذا غَسّلوا موتاهم ولفّوهم في كفنٍ من قماش أبيض، ودفنوهم في أرض بكر أو في قبرٍ عميق.

إذا تذكّروا محمدًا عند الحاجة، وأنّه نبي الله ورسوله، وأنّ أول معبد لله هو بيت مكة.

إذا قالوا شيئًا أو فعلوا أيّ شيء مرتبط بالدين المحمدي.

تُنشَر هذه التّهم، ويجب على كلّ مَن يرى أو يسمع أنّ الموريسكيّين الذين تمّ تعميدهم قد أتوا بشيء من هذه التّهم؛ وجب عليه الإبلاغ، وإذا لم يبلّغ في مدّة أقصاها ستة أيام يعاقَب بتهمة ارتكاب خطأ فادح.

ووقّع الكاردينال خمنيس في نهاية الأوراق، ثمّ قرع الجرس، فأقبل مساعده سالثيدو، فمدّ الكاردينال بالأوراق ناحية سالثيدو وقال:

- تلك قائمة التّهم التي إن فعلها الموريسكيّون يتمّ إبلاغ الديوان المقدس بها، وليتمّ نشرُها في كلّ ربوع غرناطة.

تناولَ سالثيدو الأوراق، ثمّ طواها قائلًا:

- أمرُ قداستك.

المعسكرُ القشتالي

جلسَ الكونت تنديا معَ القائد غونثالو يتناقشان كيف لهما إنهاءُ أمر تلك المدينة التي استعصتْ عليهما، فهتفَ الكونت تنديا غاضبًا:

- ماذا سنفعل الآن؟ إنّ الأسوار تتصدّى لضربات المدافع، يجب أن ننهي ذلك الأمرَ قبل وصول الإمدادات للمحاصرين من القرى المجاورة.

لمعتْ عينا غونثالو وتبسّم قائلًا:

- لن نستطيع دكّ الأسوار، والمدينة حصينة جدًّا، لكن سندخلها دونَ أن نستخدم تلك المدافع.

زوى الكونت تنديا ما بينَ حاجبيه وهتف متسائلًا:

- كيف ذلك غونثالو؟

دوّت ضحكات غونثالو عاليًا، وأجاب:

- الخيانة.

- كيف ذلك أيها القائد؟

بدأ غونثالو إخبارَ الكونت تنديا عن الخائن بدر، وكيف سيساعدهم لدخول المدينة من الطريقِ المهجورة، عندها هتف الكونت تنديا:

- إذًا.. سقطت المدينة.

أنهى الكونت تنديا كلمتَه التي تزامنت مع صوت انفجاراتٍ عالية، فهبّ القائدان، وهرولا سريعًا خارج الخيمة، ليجدَا نار الانفجارات وقدْ أضاءت المعسكر القشتالي، وحدث هرجٌ في أرجاء المعسكر، فهتف القائد غونثالو في أحد الجنود:

- ماذا حدث؟

أسرعَ الجندي مجيبًا:

- تعرّضت المدافع للهجوم، لقد تمّ تفجيرها وإشعال النيران فيها.

صرخَ غونثالو:

- كيف حدث هذا؟

أجابَ الجندي متلعثمًا:

- هجمتْ مجموعة من القوات الإسلامية وأشعلت النيران وولّت هاربة.

زمجرَ غونثالو غاضبًا:

- وأين كنتم؟

لاذَ الجندي بالصمت، فأشار غونثالو إلى الجندي:

- فلتغرب من أمامي الآن.

تجهّزت فرقة وركبتِ الخيول وأرختْ لها العنان لتلحقَ بالقائد علي، لكن وصل علي وفرقتُه إلى أسوار المدينة، وتمّ إمطار الفرقة القشتالية بالأسهم، فهتف قائد الفرقة:

- لنْ يمكننا أن نتقدّم للأمام أكثر من ذلك، وقفل راجعًا.

انقشعَ الظلام مُخلفًا كومةً من المدافع المحترقة، بلغَ الغضب من القائد غونثالو مبلغه بعدَ أن تدمّرت مدافعه، لم يتبقّ له سوى ثلاثة مدافع، في حين أقبل الكونت تنديا ناحية القائد غونثالو قائلًا:

- ماذا نفعل الآن، لم يتبقّ لنا سوى ثلاثة مدافع، ولن يؤثروا في تلك الأسوار.

برقتْ عينا غونثالو وهتف قائلًا:

- سنهزمهم من داخلهم، ليتمّ اليوم إنهاءُ ذلك الحصار، سندخل المدينة بقيادة بدر عبرَ الطريق المهجورة، فليتجهّز الجيش، ولنرى كيف يصنع القائد علي عندما يشاهدنا داخل مدينته.



غونخار- داخل المدينة

أشرقَ ضوءُ النهار على المدينة ليكون شاهدًا على السقوط، وكثف الجيش القشتالي ضربات المدافع، دوّت طلقات المدافع محدثة صوتًا مرعبًا عند اصطدامها بالأسوار، صمدتِ الأسوار طويلًا أمامَ طلقات المدافع، لكن الخيانة عجلت بسقوطها.

على الجانب الآخر، كانت فرقة من الجيش القشتالى يقودها بدر تعبرُ الطريق المؤدّي إلى داخل المدينة، ليتفاجأ الجنود الموكل لهم حراسةُ مدخل المدينة بالفرقة القشتالية داخلَ المدينة، فهتف أحد الجنود:

- خيانة، خيانة.

دوّت صرخاته في الأرجاء.

وقعَ الأمرُ كالصاعقة على المدينة المحاصرة، نزل القائد عليّ من على برج المراقبة صارخًا:

- كيف حدثَ هذا؟ تلك طريق لا يعرفها إلّا بضع نفرٍ يعدّون على أصابع اليد.

هتفَ الشيخ الزبيدي:

- الخيانة يا بني.

أسرعَ علي شاهرًا سيفه، ودارت معركة شرسة، لعبَ فيها عنصر المباغتة دورًا كبيرًا، وفي غفلةٍ من الجنود الذين يتصدّون للقشتالة داخل المدينة،

تسلّل بدر إلى البوابة الرّئيسية وحرّك المزلاجَ الكبير وفتح البابَ أمام تلك الأمواج الهادرة من الجند.

أعطى القائد غونثالو إشارةً باقتحام المدينة، والذي كان قد اقترب أكثر من الأسوار بعدما شاهد الجنودَ الذين قد هبطوا مِن على الأسوار لصد الهجوم داخل المدينة.

ودارتْ رحى حربٍ ضروس داخلَ المدينة غير متوافقة القوى، كانت بين جيش نظامي وفلاحينٍ يفتقرون إلى الأسلحة.

قاتلَ علي حتى سقطَ صريعًا من فعل الطعنات بعد أنْ حافظ على المدينة لكنْ أتتْه الطعنةُ من أبناء جلدته، مَن دافع عنهم وأرادَ لهم حياة كريمة، لقد آلمته الخيانة أكثر من الطّعنات التي تلقّاها من عدوه، فأشدّ الطعنات التي تأتي من أناس كنت تدافع عنهم.

دخلَ القائدان المدينة بعد أنْ غدت دمارًا، وجثث القتلى في كلّ مكان.

هتفَ القائد غونثالو في جنوده ليتمّ تمشيط المدينة، ومَن وجدتموه فاقتلوه وليتمّ حرق المدينة بكاملها، ليعلمَ كلّ مَن تسوّل له نفسه الثورة على أسياده أنّ مصيره سيكون القتل، فأقبلَ جندي مسرعًا، انحنى أمام غونثالو قائلًا:

- سيدي القائد، إنّ مسجد القرية مليء بالأطفال والنساء والشيوخ!

صرخَ غونثالو في الجندي:

- ألم تفهمْ ما قلته لكم، ليتمّ قتل كلّ من وجدتموه.

- أمرُك أيها القائد.

انطلقَ الجندي، ومشى بضعَ خطوات، فأتاه صوت القائد غونثالو:

- أيّها الجندي.

فعادَ الجندي مهرولًا، وقال:

- أمرُك سيدي.

هتف القائد غونثالو:

- ليتمّ نسفُ المسجد بالبارود بكلّ مَن فيه.

تسارعتْ أقدام الجندي الذي راح لينفذ أمر قائده، بضع دقائق وكانت النيران تشتعل في كلّ مكان، تفحمت الجثث، فقد مُحيت الرحمة من تلك القلوب.

أقبل بدر ناحية القائد غونثالو يسعي مهرولًا:

- سيدي القائد، لقد وعدتني بالأمان لي ولعائلتي.

علتْ ضحكات غونثالو مجلجلة:

- أيّ أمان يا هذا!!

وسقطَ في يديه، فَخَرَّ بدر على ركبتيه يندبُ حظّه البائس:

- الرّحمة يا سيدي القائد، أنا مَن أخبرتكم عن الطرق، أنا مَن سرتُ معكم فيها، أنا مَن فتح لكم الأبواب.

قهقه القائد غونثالو فارتجّت الأرجاءُ على إثر ضحكاته:

- أنتَ خائن يا بدر، أتعي معنى الخيانة، لقد خنتَ دينك وأبناء جلدتك، سيأتي يوم وتخوننا يا بدر، ونحنُ لا نترك خائنًا بيننا، ألم تعلم أنّ الخيانة ليس لها جزاء إلّا القتل يا بدر؟!، كان الأجدرُ بك أن تموتَ مدافعًا عن مدينتك لا أن تسلمها لنا، لكنْ يبدو أنّ ذلك طبع في بعضكم أيها الأندلسيون.

صمتَ للحظات وأضاف قائلًا:

- وجزاءُ الخيانة القتل.

وأشارَ القائد غونثالو إلى رقبته، في حين ذرفَ بدر الدموع على حاله التي أضحى عليها وتمتم:

- الرّحمة يا سيدي القائد، الرحمة يا سيدي.

أشارَ غونثالو إلى جنديّ فاستلّ سيفه وهوى به على بدر، وقتل غونثالو كلّ مَن وجده بالمدينة، وبعدها أحرق باقي المدينة.

***

إشبيلية

فضّ فرناندو الرسالة التي أرسلها قائده غونثالو، وبدأ في قرأتها، فهبّ واقفًا وصرخ:

- قادة فاشلون، لم يستطيعوا التغلبَ على بعض المدن والقرى، وأهلها ليس لديهم أيّ خبرة قتالية، هل عليّ إنهاء كلّ الأمور؟

دلفتْ إيزابيلا إلى الداخل على صراخ فرناندو:

- ماذا حدث؟ لم كلّ هذا الغضب؟!

ناولها فرناندو الرسالة، فطالعتها إيزابيلا قائلة:

- إنّهم يريدون المدد!

صرخ فرناندو:

- كلّ القادة فاشلون، سأقود الجيش بنفسي.

ثمّ صفّق فرناندو بيديه فدخلَ جندي مهرولًا، ثمّ جثا على ركبتيه، فهتف فرناندو:

- لتستدعوا لي الفارس خوسيه الآن.

- أمرك يا سيدي.

نهضَ الجندي مسرعًا إلى الخارج، غمرَ فرناندو غضبٌ شديد، لما تكلفه غرناطة كلّ تلك الخسائر التي تسبّب بها الثوار؟، قاطعًا البهو ذهابًا ومجيئًا، أقبل خوسيه مسرعًا لقد أخبره الجندي أنّ الملك في قمة الغضب.

أقبلَ خوسيه مسرعًا قاطعًا الممرّات المؤدية إلى قاعة الملك، دلف للداخل فوجده في قمة الغضب، فجثا خوسيه على ركبتيه وهتف قائلًا:

- جلالة الملك، الأمر لك.

- ليتجهّز الجيش يا خوسيه، والقادة والفرسان ليكونوا على أهبةِ الاستعداد، فلدينا قرى ومدن تحتاج إلى ردع.

- أمرك سيدي.

***

غرناطة

احتدمتِ المعركة الأبدية بينَ الليل والنهار، وحسمت المعركةُ لصالح النهار، وتنفس الصّبح، وطلعتِ الشّمس على استحياء على مدينة غرناطة، بعد أن أُغلقت المساجد ومُنع الأذان، وحلتِ الصّور والصلبان وعلتِ الأجراس في كلّ مكان بعدَ ذكر الرحمن وتلاوة القرآن.

سارَ عبد الرحمن في شوارع المدينة على غيرِ هدى، قادته قدماه إلى نهر شنيل، كلما ضاقتْ عليه الدنيا أقبلَ ليجلس على شاطئ النهر، لاحَ طيف من بعيد مقبلٌ نحوه، قَلّب بصرَه ذات اليمين والشمال، لكنْ مازال الطيف مقبلًا نحوه، بدتِ الملامح في الوضوح أكثر، لم ينسَ تلك الخطوات، وكيف له أن ينسى من عَلّمه العلم.

- إنّك تهزي يا عبد الرحمن؟!!

بهذه العبارة أرادَ عبد الرحمن يُخرج نفسَه من تلك الحالة، لكن مازال الطيف مقبلًا، سرى الرعبُ في أوصاله.

- هل جننت يا عبد الرحمن؟

هتفَ فيه صوت قوي:

- كلا، لم تجنّ يا بني.

كلماتٌ هزّت وجدانه وانعقد لسانُه عن الكلام، فهبّ واقفًا وأقبل على الشيخ وهتف قائلًا:

- لماذا رحلتَ وتركتنا نقاسي الويلات، أنسيت وعدك؟، قلت لنا لن أترككم، ومَن لهؤلاء المساكين يبصرهم بالحلال والحرام؟

- إنّها مشيئة الله يا عبد الرحمن، لم أرحلْ يا بني، فلتبحث في داخلك، ستجدني هناك.

- لكنّك رحلت يا شيخي، ورحلَ معك الأمان، لقد غرقنا بعدك في لجج الفتن والآثام، لقد أظلمتِ المدينة بعدَك، لقد غدت النّواقيس بدلًا من الأذان، ومُلئت مساجدُنا بالصّور والصلبان بعدَ ذكر الله وتلاوة القرآن، أمَا آن لك أن تعود يا شيخي؟!

- لن أعودَ يا بني ثانية، لكنه سيعودُ في يوم من الأيام.

زوى عبد الرحمن ما بينَ حاجبيه، لم يفهم ما يرمي إليه الشيخ فهتف قائلًا:

- مَن يا شيخي؟

تبسّم الشيخ وهبّ واقفًا، وسار فحانتْ منه التفاتة للوراء وقال:

- الإسلام، سيعود يومًا رغمَ أنوفهم، فلتصبروا يا بني.

- كيف؟ ومتى؟

أسئلة طرحَها عبد الرحمن لكن تبدّدت في الهواء، لم يجدْ لها جوابًا، وقد أقبل محمد وعامر ناحيته، فوجداه قدِ اغرورقت عيناه بالدمع، فهتف به محمد:

– ما بك يا أبا محمد؟

– لا شيء يا صديقي، لكنّها قد ضاقت علينا الأرض بما رحبت، ألا ترى؟، غيروا ديننا، وتمّ استبعادنا من نواحي الحياة ومِن الكلام، منعونا أن نتحدث لغتنا، فرضوا علينا أن نتركَ لباسنا العربي وأنْ نرتدي ملابسهم القشتالية المقيتة، إنني أتساءل إلى متى سنظلّ هكذا، يُفرض علينا كلّ شيء، ليس لنا خيارٌ في حياتنا؟

التفتَ محمد إلى عامر متعجبًا من قول عبد الرحمن قائلًا:

– ماذا دهاك يا أبا محمد؟! ما عهدناك هكذا، فلتصبر، فإنّما النصر صبر ساعة.

– ألمْ تأتِك أخبارُ إخواننا في البشرات، لقد حدثتْ فيهم مقتلة عظيمة، لقد أقبلَ فرناندو ليحاصر ويُسقط المدنَ الواحدة تلو الأخرى.

– لقد علمت أنّ فرناندو قام بمهاجمة المناطق الثائرة، وأخضع مدينة أندرش، ولانخرون، ولوشار، وموندجار، وبلفيق، ولم يستطع الثوارُ الاستمرار في المقاومة نظرًا لقوّة الجيش المنظم وافتقارهم للأسلحة والجنود المدربين.

– ألم تعلموا أنّ قرى البشرات استسلمتْ مقابل دفع خمسين ألف دوكية (عملة ذهبية أسبانية) وتسليم الأسلحة والحصون التي استولى عليها، لقد خبت تلك الشعلة التي كنّا نعول عليها.

هتفَ عامر قائلًا:

- البشرات لم تستسلم، لقد فعلتْ بها الخيانة ما لم تستطعْ فعله الجيوش القشتالية.

عندَها هتف محمد معلقًا:

- أمَا علمت يا أبا محمد بما حدثَ في الجبال الحمراء، لقد اشتعلت الثورة ثانية أشدّ وأقسى من ثورة البشرات في مدن سيرا دى فيلابرس ووادي آش وبسطة والمنطقة الجبلية المحيطة بمدينة رندة، وقد سَيّر فرناندو قواته بقيادة ألونسو دي أغيلار وولده الدون بيدرو دي قرطبة.

***

الجبالُ الحمراء

ما كادتْ نيرانُ الثورة في البشرات تخمدُ حتى كان رجالُ الجبال الحمراء يعدون العدّة لإضرام النيران من جديد، وقد اجتمعَ قادة مدن الجبل الأحمر لإعداد الخطة قبل مداهمتهم من قبَل قوات الجيش القشتالي، ونشر إبراهيم بن أمية خريطتَه التي أعدّها لقرى الجبال، وبدأ في شرح إستراتيجيات الحرب:

– عندما يعلم فرناندو أنّنا أشعلنا الثورة في الجبال، واستولينا على عدّة معاقل ساحلية؛ سيطيش عقله، ويرسل لنا قواته على عجلٍ قبل أن يستفحل أمرنا.

هتفَ نصر:

– سيدي، الممرّات في الجبال صعبة، وستكون فرصة مهاجمتنا للقوات صعبة.

انفرجتْ أسارير إبراهيم بن أمية قائلًا:

– صبرًا يا نصر، الممرّاتُ الوعرة ستكون عونًا لنا، سنعملُ على سحق تلك القوات ودفنِها بين الجبال، ولكن يلزمنا أن نعدّ العدّة لذلك، فلتأخذ يا نصر فرقة من الجند، وليتمّ جمع أكبر قدرٍ من الأحجار ووضعها على حافة قمم الجبال، أمّا أنت يا سعد ستكون مهمّتك إمطار جيش العدو بالسهام والبارود، وسيأتي دوري وهو تطويقُ الجيش بعد دخولهم في الممرات الوعرة، حينها سنكون قد وضعنا الجيشَ بين المطرقة والسندان، وسننطلق عندما يتمّ إطلاق ثلاث طلقات بارود، ولتكنْ تلك إشارة البدء.

انطلقَ القائد ألونسو دي أغيلار بقواته قاطعًا تلك الممرات الجبلية الوعرة، للقضاء على تلك الثورة العارمة الضّاربة بجذورها في عمق الجبال قبلَ استفحال أمرها.

نظرَ الدون بيدرو وقَلّب ناظريه في قمم الجبال الشاهقة التي أحاطت بهم من كلّ اتّجاه، يخشى أن يكون قد أعدّ لهم الأندلسيون كمينًا، حينها سيكونون في موقف لا يحسَدون عليه، وستكون نجاتُهم صعبة للغاية، اقتربَ الدون بيدرو بحصانه من والده الذي كان على رأس الجيش، وهتف قائلًا:

- سيدي القائد، لا يمكننا العبورُ من تلك الممرات الخطرة بكامل الجيش، أخشى أن يباغتنا العدوّ من فوق الجبال.

أدارَ القائد ألونسو دي أغيلار رسنَ حصانه، والتفت ناحية الدون بيدرو وهتف قائلًا:

- لا تقلق، إنّ والدك يحارب طيلة أربعين عامًا وقد شهدتْ حروب الكفار في غرناطة، إنّنا نحارب رجالًا لن يستطيعوا أن يخرجوا خارجَ أسوار مدنهم.

- لكنْ يا سيدي الممرّاتُ بين الجبال وعرة جدًّا، والجبال شديدة الانحدار، وستكون عاملًا جيدًا لإمطارنا من فوقها بالسهام والأحجار.

هتفَ القائد ألونسو دي أغيلار:

- لنْ نرجع، لدينا قرى يجبُ إخضاعها، لن يقال هرب أغيلار من المواجهة.

أدركَ الدون بيدرو أنّ القائد ألونسو دي أغيلار قد صمّم على عبور تلك الممرات الجبلية الوعرة، فأدار رسنَ حصانه وعاد إلى ميمنة الجيش التي أوكل له قيادتها.

أقبلَ سعد مهرولًا ناحية قائده إبراهيم بن أمية هاتفًا:

- سيدي القائد، إنّ الصيد يدخل شباكنا.

- لا تستعجلْ يا سعد، ولتنتظرِ الإشارة للبدء في إمطارِ الجيش بالسهام والبارود، وليعمل نصر وفرقته بإمطارهم بالحجارة.

- أمرُك يا سيدي.

ظهرتْ على إبراهيم ملامحُ الإصرار والتحدي، فهتف قائلًا:

- ليعلم ملك قشتالة إنّنا أحفاد موسى بن نصير وطارق بن زياد، إنّنا نختلف عن ملوك بني الأحمر.

دوّت ثلاثُ طلقات من البارود، وانهالتِ السّهام من كلّ اتجاه، أمطرت السماء حجارة فوقَ رأس الجيش، حينها أدرك القائد ألونسو دي أغيلار أنه وقعَ في كمين محكم لن يخرجَ منه بسهولة، فأقبل الدون بيدرو ناحية والده صارخًا:

- لقد قُضي علينا ووقعْنا في فخّ محكم. (وهتف صارخًا) ليتم حماية القائد.

أقبلَ الجنود ليشكّلوا درعًا بشريًّا حول القائد، فأعطى القائد ألونسو أوامره بالانسحاب، هولُ المفاجأة قد شلّ تفكيره، وأفقده كلّ الإستراتيجيات العسكرية.

- لن يمكننا الانسحاب؟!

هتفَ بها الدون بيدرو، وأكمل قائلًا:

- هذا ما يريده الثوارُ منّا، إن انسحابنا الآن يعني القضاء علينا.

صرخَ ألونسو وقد تثوره الغضب:

- لننسحب، ونخرج عن مرمى قواتهم.

أدركَ الدون بيدرو أنّ قرار الانسحاب في هذا الوقت يقودهم نحو الهلاك، لن يجدي الاعتراض في وقت كهذا، أعطى الإشارة بالانسحاب رغم اعتراضه على القرار.

أقبلَ جندي مُسرعًا ناحية إبراهيم بن أمية ليطلعه على آخر المستجدات:

- سيدي، لقد بدأ الجيشُ في الانسحاب، وخرج عن مرمى البنادق والسهام.

أشرقَ وجهُ إبراهيم بن أمية، وهبّ واقفًا وقال:

- أقبلْ لترى أيها القائد ألونسو، إنّنا نختلف عن ملوك بني الأحمر، أقبل لحتفك.

أعطى القائدُ إبراهيم بن أمية أوامرَه بتطويق القوات القشتالية، ودارت رحى الحرب، وانهمرتِ القوات الإسلامية تفتكُ بالقوات القشتالية التي أذهلها الموقف، وفرّ الجنود من ساحة الوغى، فتلقّفتهم فرقة من القوات الإسلامية وأعملت فيهم السيوف.

انقشعَ غبار المعركة، وعلتْ صيحات التكبير، وقُتل قائد القوات القشتالية القائد ألونسو والقائد فرانسيسكو راميز، وفرّ الدون بيدرو هاربًا بعد أن أعيتْه الجراحُ مع ثلة من الجنود تمكّنوا من الفرار، وعاد بيدرو يجرّ أذيال الهزيمة.



غرناطة

أتتِ الأخبار سريعًا إلى غرناطة، توالتِ الضربات على رأس فرناندو، ما كادَ لينهي أمرَ الثورة في البشرات إلّا وهبّت نيرانها في الجبال الحمراء. أقبل فرناندو قاطعًا الدهليز المؤدّي إلى بهْو السّفراء يتبعه خوسيه وهو يصرخ:

- كيف حدثَ هذا يا خوسيه؟! كيف قُتل القائد ألونسو؟ إلى متى سنظلّ نقاتل في الجبال؟، كلّ ما ربحناه تبدّدَ في الهواء؟!

أرادَ خوسيه أن يُهدّئ من غضب الملك قائلًا:

- سيدي، يمكننا أن نكرّر ما فعلناه مع الثائرين في قرى البشرات.

أطالَ فرناندو التفكير، وعاد إلى مجلسه قائلًا:

- لن يجدي هذا نفعًا مع الثّائرين في الجبال الحمراء، لكنّنا سنعمل على إخماد تلك الثورة بالقوة، ولنتحرّك بالجيش الآن.

تحرّك فرناندو بجيشه قاطعًا المدنَ والقرى إلى رنده ليتّخذها قاعدته ليبدأ شنّ الهجوم منها، لكنّه وجدَ هجومًا مضادًّا من الثوار وألحقوا به الهزائم.

***

ضربَ فرناندو موعدًا لعقد اجتماع حرب مع قادة الجيش، جلس فرناندو في خيمته ناشرًا أمامَه خرائط للجبال الحمراء، كاد عقله يطيشُ من منعة تلك الجبال، لقد سوّى الثوار في الجبال الحمراء بسمعتِه الحربية الأرضَ، لم يستطعْ أن يتغلب عليهم رغمَ قلة عددهم وأسلحتهم.

توافدَ قادة الجيش وتحلّقوا حول الخرائط التي نشرها فرناندو، وهبّ فرناندو صارخًا:

- لا يمكننا القتال في الجبال، سنكون صيدًا سهلًا للمسلمين.

- ليأذن لي سيدي.

هتفَ بها القائد غونثالو دي قرطبة.

أذنَ فرناندو لغونثالو بالتحدّث، ونهض غونثالو من مجلسه، وأشار بسيفه موضحًا أماكن تمركزِ الثوار على الخريطة التي أمامهم.

- سيدي الملك، إنّنا محاطون من كلّ اتّجاه، والثوار يشنّون علينا حربَ عصابات، ينزلون من الجبال على حينِ غفلة من الجيش فيضربون ضربتهم ثمّ يولّون هاربين إلى الجبال، وأرى أنْ نهادنهم ونعمل على جعلهم يقبلون بالتّسليم وفق شروطنا، ومكوثنا هنا في أندرش سيكلفنا كثيرًا من الجنود والأسلحة.

هتفَ فرناندو مستفسرًا من القائد غونثالو:

- وكيف سنجعلهم يقبلونَ بالتسليم وفق شروطنا، ونحن نعلم أنّ النصر سيكون حليفهم.

- سيّدي الملك، إنّ الثوار يفتقرون إلى القيادة وحسن التخطيط لمعركة يحسمون فيها الأمر.

هبَ فرناندو صارخًا، وضرب بكلتا يديه المنضدة:

- لتقلْ لي إذًا أيّها القائد كيف هزموا جيش ألونسو دي أغيلار؟!!

- القائد ألونسو دي أغيلار هو مَن أوقع نفسه في الكمين الذي تمّ إعداده له، وأنا أقدّر تلك العقلية التي نفّذت ذلك المخطط، لكن كان يلزمه إرسال طلائع من الجيش ليتفقّد الكمائن.

هتفَ الكونت تنديا معقبًا على كلام غونثالو:

- سيدي الملك لنُنْهِ ذلك الأمر، يلزمنا أنْ نضرب الحصار على كلّ القرى، ونقطع عنهم الإمدادات، عندها سيأتي الثوارُ مستسلمين، عندها نملي نحن شروطنا.

بدا على وجه فرناندو الارتياح لرأي القائد غونثالو والكونت تنديا.

وضربَ فرناندو الحصارَ على المدن، وقطع الإمدادات عنها، وأرسل فرناندو قائده غونثالو ليتفاوضَ مع الثوار في الاستسلام، والذي اشترط على الثوار خيارَيْن لا ثالث لهما؛ إمّا النفي على أن يدفع مَن أراد الخروج من البلاد عشرة دنانير ذهبية أو التعميد.

فسلْ وحرّا عن أهلها كيف أصبحوا

أســـــارى وقتلى تحــت ذل ومَهْنة

وســــل بلفيقا عن قضية أمــرها

لقد مُزِّقوا بالسيف من بعــد حسرة

ومنيافـــة بالسيــف مزَّق أهلها

كـــذا فعلوا أيضًا بأهــــل البشرّة

وانــــدرش بالـــنار أحرق أهلها

بجامعهم صـــــاروا جميعًا كفحمة

قصرُ الحمراء

هبّت من ناحية حديقةِ القصر أنسامٌ لطيفة في ليلة مقمرةٍ من ليالي غرناطة، فاحت رائحةُ الياسمين، سارتْ إيزابيلا ناحية الحديقة، لم تعدْ تحدوها الذكريات، كلما اقتربت من الحديقة زادت رائحةُ الياسمين. جلست إيزابيلا على إحدى الأرائك الموضوعة في الحديقة، وقد غلبَ عليها الإنهاك والإحباط فأغمضتْ عينيها، هجرتها حماسة الأيام الأولى من اعتلاءِ العرش، كانت تحسب أنْ يمكنها أن تضمّ المسلمين إلى رعاياها، وتفرضَ عليهم التنصير، لكنْ تحطّمت كلّ آمالها على صخرة الحقيقة.

جلبَ انتباهها فجأة وقعُ أقدام مقبلةٍ عليها، ففتحت عينيها ورأته مقبلًا عليها، لقد رآها فرناندو من الشّرفةِ المطلة على حديقة القصر، شاهدها جالسةً على إحدى الأرائك شاردة الذّهن، فأقبل وجلس بجوارها، وقال:

- ما لي أراكِ شاردة الذهن؟

لم تهمّ بالردّ حتّى بادرها فرناندو من جديد:

- لماذا تجلسين في مثل هذا الوقت من الليل هنا؟ وأين الوصيفات؟

ردّت إيزابيلا على سؤاله الأخير:

- لقد صرفتهم، أريد أن أجلس بمفردي بعض الوقت.

زوى فرناندو ما بين حاجبيه، وهتف مندهشًا:

- لمَ؟ هل حدث شيء؟

أرادتْ أن تنهي الحوار سريعًا:

- لا شيء.

- لكنّ حالك يقول غير ذلك، أين ذهبتْ تلك الحماسة والوعود التي قطعناها سويًّا أن نطهّر البلاد من هؤلاء الكفار؟! أنسيتِ يومَ اتفقنا لنعيد تلك البلاد لحظيرة الربّ كما كانت؟

ندّت عن إيزابيلا ابتسامة حزينة:

- أنتَ ترى! هؤلاء المسلمون مازالوا مصرّين على دينهم، لقد سئمت منهم، وأنت خضتَ تلك المعارك في الجبال ولم تتغلّب عليهم، إنّهم عنيدون جدًّا.

هتفَ فرناندو بلهجة واثقة:

- أعلمُ أنّ إخماد الثورة في البشرات والجبال الحمراء كلّفنا الكثير، فقدنا قادة من أعظمِ قادتنا، فضلًا عن ألوفِ الإصابات بين الجنود، وتمّ إتلاف الكثير من المدافع، وتكبّدنا خسائر مالية كبيرة بلغت ما يقرب من ثمانين ألف ألف مرافيدى.

ندّت عن إيزابيلا ضحكة سخرية:

- كلّ همّك الأموال يا فرناندو؟!، لم أتحدّث عن هذا، لكن أخشى أن يكرّر الأندلسيون الثوراتِ ثانية، لذلك سأصدرُ مرسومًا يعمّم في كلّ المملكة يسري على كلّ المدجّنين في قشتالة وليون، وليس على غرناطة فقط.

ونهضتْ دفعة واحدة وأضافت:

- ليس أمامهم إلّا التنصير أو الطّرد من المملكة نهائيًّا، وليحدّد المدة في المرسوم على ألّا تزيد عن ثلاثةِ شهور لتنفيذه.

هتفَ بها فرناندو:

- دعي لي الأمرَ لكتابة ذلك المرسوم، وسأعرضه عليكِ.

***

الدّيوانُ المقدّس

سارَ راميرو في طرقاتِ المدينة متّجهًا نحو مبنى الدّيوان المقدس، على طول الطريق أخذَ راميرو يتمرّن على ما سيقوله، لقد شاهدَ أحد الموريسكيّين يصلّي صلاة المسلمين، اقتربَ من مبنى الديوان المقدّس، انتفض قلبُه من الخوف واضطربتْ أركانه، أراد أن يرجع، جاءه خاطرٌ يرنّ في عقله، كيف ترجع يا راميرو؟ ألَا تخاف من الإثم الذي سيلحقُ بك من جرّاء كتم الحقيقة؟ تشجّع وأكملِ الطريق.

لاحَ له المبنى من بعيد، مبنى مربّع الشّكل، مكوّن من ثلاثة طوابق، اقترب أكثر ووقف أمامَ بوّابته الحديدية الضخمة، ليقشعرّ جسدُه من الخوف، فازدرى ريقه وحرّك الباب، دارَ الباب على محوره مُحدثًا صريرًا عاليًا، واهتزّ قلبه من الخوف، دلفَ للداخل وأكمل طريقَه يتبعه الرعب من المكان.

أتاه صوتٌ من خلفه كفحيحِ الأفاعي، جعله ينتفض وكأنّه تلقّى ضربة قاسية على رأسه، معَ انتفاضة جسده، كان قلبُه يقفز من مكانه من الهلع.

- ماذا أتى بك يا بني؟

تسمّرت قدما راميرو في الأرض، أرادَ أن يجيب، تلعثمت الكلمات على لسانه، فربّت الكاردينال خمنيس على كتف راميرو وهتف:

- لا تخفْ يا بني، هدّئ من روعك.

التفتَ راميرو للوراء فجثا على ركبتيه والتقطَ يدَ الكاردينال فقبّلها، رسم الكاردينال الصّليبَ على جسد راميرو وهتف:

- انهضْ يا بني، وليحفظك الرب.

أسرعَ راميرو بالنهوض، والتقط أنفاسه المبعثرة قائلًا:

- أتيتُ يا سيدي لأبلغ عن موريسيكيّ شاهدته يصلّي صلاة المسلمين.

لمعتْ عينا الكاردينال، وندّت عنه ابتسامة:

- ليباركَكَ الرّب، أنت تنقذُ نفسك من الخطيئة التي كانت ستلحقُ بك جرّاء إخفاء الحقيقة.

أشارَ الكاردينال بيده لراميرو ليتبعه، سارَ الكاردينال يتبعه راميرو في ممرّ ضيق شحيح الإضاءة، تقبعُ على جانبيه عشراتُ الغرف، توقف الكاردينال قبالةَ إحدى الغرف ودلفَ إلى داخلها، فهبّ ريكاردو واقفًا من مجلسه، فأشار له الكاردينال بالجلوس:

- لقدْ أتى الابنُ البار راميرو للإبلاغ عن مهرطق نزعَ عنه ختم المعمودية وعاد إلى ديانتِه القديمة، فلتعمل يا ريكاردو على تدوين بلاغه.

خرجَ الكاردينال خمنيس بعد أنْ أنهى حديثه معَ ريكاردو، وعاد ريكاردو إلى مجلسه، وأخرج بعضَ الأوراق، وبدأ في سؤال راميرو..

- مَن هو ذلك الذي عادَ للهرطقة بعدَ تعميده؟ وماذا كان يفعل؟

بدأ راميرو في حديثه بعد أن أخذَ نفسًا عميقًا:

- بيدرو، وكان قبلَ تعميده يدعى (محمد)، كان لديه دكانٌ في سوق المدينة ويعمل ورّاقًا.

بدأ ريكاردو في تدوين ما قاله راميرو، ثمّ تغيّرت لهجة ريكاردو قائلًا:

- لم أسألك ماذا يعمل، لقد أردتُ معرفة ما العملُ الذي جعلك تقول إنّه عاد إلى هرطقته؟

ازدرى راميرو ريقَه، وبدا مرتجفًا وقال:

- عذرًا سيّدي، لقد كنتُ في يوم على أطراف المدينة، ومن عادتي أن أتجوّل في الغابات المحيطة بغرناطة، وعند مروري بالقرب من النهر، رأيته يؤدّي بعض الحركات التي لم أفهمها، حينها تواريت بين الأشجار وظللتُ أراقبه حتى أنهى ما كان يفعل، ثمّ تبعته حتى خرج من الغابة ودخلَ غرناطة، وبعدها وصفتُ تلك الحركات لأبي فأخبرني أنّ تلك صلاة المحمديّين.

- ما الذي دفعك لتبلّغ الديوان المقدس؟ هل بينك وبين بيدرو عداوة؟

- أنا لا أعرفه يا سيدي، فكيف يكون بيني وبينه عداوة، لقد خفت من الخطيئة التي كانت ستلحق بي من جرّاء عدم الإبلاغ المهرطقين.

قامَ ريكاردو وتناول الكتابَ المقدس، وأقبل ووضعه أمام راميرو قائلًا:

- تقسمُ على ذلك يا راميرو؟

- أقسم يا سيدي.

- ليباركك الربّ يا راميرو، يمكنك الذهاب ونحن سنتولّى الأمر.

قصبةٌ الحمراء

كعادتهما يحبّان الجلوسَ مع بعضهما، غارسيا يجدُ شغفه في سماع حكايا التاريخ الَغابر لتلك الأرض التي أخذوها من أعدائهم، جلسا سويًّا في ليلة مقمرة لا يشوبها غيوم، فاستهلّ غارسيا حديثه قائلًا:

– ها قدْ جمعتنا الحربُ ثانية يا خوسيه، أخمدنا الثورةَ في البشرات والجبال الحمراء، ومكثت يا خوسيه في غرناطة.

ندّت عن خوسيه ضحكة عالية وهتف:

– يبدو أنّ الحرب تجمعُ شملنا، ويفرقنا السلم.

قالَ غارسيا مازحًا:

– أنسيتَ يا خوسيه ما كان منك في إشبيلية؟ لم تروِ لي قصة برج الجرس، وكيف أخذنا تلك التحفَ المعمارية من هؤلاء الكفرة.

صمتَ خوسيه لبرهة، ثمّ قال:

– يبدو أنّك لا تنسى، لكنْ أنت مَن ترك إشبيلية ورحل، لقد زادَ شغفك بالتاريخ يا غارسيا.

ندّت عن غارسيا ابتسامةٌ جانبية لكنّه أحجم عن الكلام، وأومأ برأسه بالإيجاب، اعتدل خوسيه في جلسته، وبدأ في سردِ حكاية برج الجرس في كاتدرائية إشبيلية.

– فلتسمعْ إذًا يا غارسيا، الكاتدرائية التي تراها هي في الأصل مسجدٌ لهؤلاء الأندلسيّين، بناه ملكهم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، وبدأ في تنفيذه شيخ المهندسين أحمد بن باسة الإشبيلي، أحدُ أبرز خبراء البناء والتصميم والتخطيط في عهده، وتمّ البناء وجاءَ المبنى قمّة في الروعة، واستغرق بناؤه أربع سنوات، وماتَ أبو يعقوب بن عبد المؤمن قبلَ إتمام المسجد، وتولى بعده ابنه أبو يوسف يعقوب، وشرع في إكمال المسجد، وأمرَ والي إشبيلية بالإشراف على إتمام مشروع أبيه، وإكمال بناء المئذنة التي أرادها أن تكونَ أعلى من مئذنة الجامع الكَبير بقرطبة، لكنْ شُغل أبو يوسف المنصور بقتال أجدادنا القشتاليّين، ولم يتمّ الانتهاء من بناء المئذنة إلّا بعد انتصاره على جيوشنا في موقعة الأرك في العاشر من يوليو عام ١١٩٥م، وارتفعت المئذنة مشرفة على سهول إشبيلية، وكانت تعدّ أطولَ برج في العالم إذ بلغَ ارتفاعُها سبعًا وتسعين مترًا، وبعد إسقاط إشبيلية على يدِ ملكنا العظيم فرناندو الثالث قامَ بتحويلِ المسجد إلى الكاتدرائية مُطلقًا عليها اسمَ كاتدرائية ماريا، وهكذا تمّ تحويلُ مئذنة المسجد إلى برج الجرس.

– أرأيتَ يا غارسيا كيف كان الأندلسيون في الماضي واليوم كيف صاروا؟، لتعلم يا غارسيا أنّ الأيام دول، وصعودٌ وهبوط، لكنّ الأندلسيّين هبطوا بلا رجعة يا غارسيا.

سألَ غارسيا مستفسرًا:

– تقول إنّ الأيام دول، وصعود وهبوط، فهل سيأتي علينا يوم لنهبط ثانية يا خوسيه؟

صمتَ خوسيه للحظات، ثمّ أجاب:

– نعم، سيأتي ذلك اليوم، ولتعلم يا غارسيا أنّنا ما صعدنا إلّا بضعف أعدائنا وتفرّقهم، كان أجدادنا في الزمن الغابر يدفعون الجزيةَ لهؤلاء الملوك الأندلسيّين، أتعلم لماذا؟

علتْ ضحكات غارسيا، وملأت المكان، وأردف قائلًا:

– لماذا أيّها الفيلسوف؟ فلتخبرني، يبدو أنّك مطّلع على تاريخ مملكة قشتالة وممالك الأعداء.

حدقَ خوسيه في غارسيا وهتف:

– أتهزئ بي يا غارسيا، لن أكملَ ولتبحث عن أحدٍ يحكي لك تلك الحكايا.

أسرعَ غارسيا قائلًا:

– دعكَ من سخافاتك تلك يا خوسيه، ولتكمل.

لم يتمالك خوسيه نفسَه عن الضحك، أراد مقاومةَ ضحكة عالية، لكنه لم يستطع، وعلتْ ضحكاته، واستجمعَ أنفاسَه، وشرع في سرد باقي الحكاية:

– أسمعتَ عن الناصر صاحبِ الزهراء، أو ابن أبي عامر، أو ابن تاشفين، وغيرهم الكثير، كان أجدادُنا يخشَون الدخولَ عليهم، وكانوا يتودّدون لهم، أتدري لماذا؟

صمتَ خوسيه لبرهة من الزمن، وبعدها أضاف:

- لأنّ الأندلسيّين وقتها كانوا متّحدين، يعملونَ من أجل دينهم، وكان أجدادنا متفرقين يتناحرون فيما بينهم، لكن كما قلتُ لك الأيامُ دول، دارت رحى الأيام على الأندلسيّين، ونبتت بينهم الفرقةُ والاقتتال فيما بينهم، وأمسوا يدفعون لأجدادنا الإتاوات، فضاعتِ الأندلس من بين أيديهم.

أدركَ غارسيا أنّ لدى صديقه حكايات كثيرة عن إشبيلية، وباقي مدن الأندلس، فأراد الاستزادةَ من تلك الحكايا، فالتفتَ ناحية خوسيه الذي هبّ واقفًا وبدأ بالسيْر ناحية حديقة القصر، فنهضَ غارسيا على إثره، وهتف:

- أينَ تذهب يا خوسيه؟ أريد أن أسألك عن تلك الأحداث التي شهدناها سويًّا، عن الثّورات التي قام بها هؤلاء الأندلسيّون.

تنفّس خوسيه الصعداء، وكأنّه أراد تحريك جبل من مكانه:

- إنّ رأيي لن يعجبك يا صديقي؟، وربّما أوردنا المهالك.

أرادَ غارسيا حثّ صديقِه على التحدث:

- أعلمُ أنّك محايد، وتلك أفضلُ ميزاتك.

توقّف خوسيه عن السيْر، وحانتْ منه التفاتة إلى غارسيا الذي توقّف بجواره، وربّت على كتفه وقال:

- التّاريخُ لا يحابي أحدًا يا غارسيا، إنّ ما قام به الأندلسيون من ثورات كان متوقعَ الحدوث، فهُم أناس تمّ الاعتداء عليهم، تمّ إجبارُهم على تغيّر دينهم، ماذا كان يُراد منهم أن يفعلوا؟! تكبّدنا خسائرَ فادحة، كلّ هذا من

اتّباع سياسة الكاردينال خمنيس، والملكين يرديان المملكة الهلاك بإصرارهم على تهجير تلك العقول، إنّ الأندلسيّين صنعوا حضارةً أضاء بريقُها على مدى ثمانية قرون، وأتى الكاردينال خمنيس وحرقَ كلّ نتاج تلك الحضارة، أتعلم لو كنت حينها في غرناطة لربما استطعتُ إخفاء بعض الكتب.

سياسة الكاردينال في إحراق الكتب لن تخرجَ عن خطّة رسمها لنفسه، ليبعد الموريسكيّين عنْ لغتهم العربية وثقافتهم، فيسهل عليه حينَها التحكّمُ فيهم، لكن بفعله هذا أحرقَ نتاجَ ثمانية قرونٍ من العلم، لو تركها للأجيال القادمة كنّا حينها سيكون لنا شأنٌ آخر.

بدَا الذّعرُ على ملامح غارسيا، وهتف واضعًا يده على فم خوسيه:

– دعكَ من قول هذا، إنْ سمعَك أحدٌ من رجال الديوان المقدّس تقول ذلك الكلام؛ ستكون عاقبتك قاسية.

توالتْ ضحكات خوسيه عاليًا، وهتف قائلًا:

– أنتَ مَن أردت ذلك يا غارسيا.

***

الفصلُ الرّابع

قصرُ الحمراء

في صباح يوم من الأيام الحزينة التي باتتْ تتكرّر كثيرًا على مدينة غرناطة، وما أكثرها من أيام تلك المدينةِ السّاحرة ذاتِ الجمال الفتّان الذي يسرق القلوب قبل العيون، أصبحتِ اليوم يكسوها حزنٌ دفين تجدُه في طرقاتها، وعلى قسمات وجوه ساكنيها منذ فُرضَ عليهم التّنصير، وباتَ أهلها عرضةً للقتل والنّفي والحرق، لقد تغير الزمن ودار على ساكنيها، وأصبحوا غرباءَ في وطنهم، لقد ذاقوا كلّ أنواع العذاب وسامهم رجال الدّيوان سوءَ العذب من حرقٍ وقتل، ومعَ هذا تمسّكوا بدينهم، وأصبح القابض فيهم على دينِه كالقابض على الجمر.

توافدَ القادةُ ورجال الدين على قاعةِ بهو السفراء؛ فرادى وجماعات، تمّت دعوتهم لحضورِ الاجتماع الذي دعتْ له الملكة إيزابيلا، دارتْ بينهم أحاديث جانبية، فلديهم أسئلةٌ تشغلهم، وأرادوا لها جوابًا، هل هناك جديدٌ ستعلنه الملكة إيزابيلا؟، لقد دانت لهم الأرضُ كلها، ولم يبقَ في غرناطة مسلمون، تعمّد أكثر من ثلاثون ألف مسلم في غرناطة.

أقبلتْ إيزابيلا ترسفُ في ثيابها الأرجوانية اللّون، يتبعها فرناندو، جلست في مجلسها وطافتْ بناظريها في الجالسين، وهتفت قائلة:

– لقد اختارني الربُّ لأعيد له سلطانَه على أرض الجزيرة، وحدت المملكة وحاربت الكفرة، أردتُ إدخال رعايانا إلى المسيحية، وقد تمّ ما أردنا على أيدي قداسة الكاردينال خمنيس.

ثمّ هبّت واقفة، وبدا عليها الغضبُ واضحًا، وهتفت:

– لقد خدعنا الموريسكيّون، فقد كانوا يجارونا فيما أردنا منهم، ثمّ يعودون لممارسة شعائرهم سرًّا.

والتفتَ ناحية الكاردينال:

– قداسة الكاردينال، أريد أنْ أرى نتائجَ عمل الديون، إلى الآن لم نشاهد موكب الإيمانِ المقدّس يجوب ضواحي غرناطة.

بدتْ على وجهِ الكاردينال ابتسامة، وهتف قائلًا:

– قريبًا يا جلالة الملكة ستشاهدون هؤلاء المهرطقين في زيّ السانبنيتو، وليساعدنا الربّ على كشف هؤلاء الكفرة.

بدَا الارتياح واضحًا على وجْه الملكة التي أكملت قائلة:

– لذا أعلنُ لكم عن المرسومِ الجديد، لن نسمح بوجودِ المدجنين بيننا، لذا عليهم التنصّر، ويكونوا عبادًا صالحين، أو النّفي إلى خارج المملكة، ويشمل المرسوم كلّ ذكرٍ تعدّى الأربعة عشرَ من عمره، وليتمّ تعميم المرسوم في كلّ أنحاء المملكة، وليشمل المدجنين في ليون كذلك.

***

الدّيوانُ المقدّس

قاعةٌ متّسعة الأرجاء مظلمةُ الأركان، جدرانُها مطليّة باللون الأسود لتكثيف الظلمة، لا ضوءَ يدخل إلى القاعة سوى بضع شموع مثبتة في الجدران، ينتصب في وسطها عمود من الرّخام مثبّت فيه حلقةً حديدية ضخمة ربطتْ بها سلاسل، اقْتيد محمد إلى العمود الرّخامي، وتمّ ربطه بإحدى السلاسل، منذ أنْ وطئت قدماه الديوان المقدّس وهو على حالِه تلك كلّ يوم يتمّ التحقيق معه وإعادته إلى السجن القابع تحت الأرض، مظلم كريه الرّائحة رديء الهواء، صرخاتُ المعذّبين تصمّ أذنيه، أراد أن يصرخ لكنه كان محطمًا من كثرةِ التعذيب، سار بخطواته متهاديًا بين جنديّيْن لم تستطع قدماه على حمله، تورّمت قدماه بعد حفلة الشّواء التي تعرّض لها، تمّ ربطه في إحدى السلاسل المتدلية من العمود الرخامي.

جلسَ الكاردينال خمنيس على عرش الدينونة، وعلى جانبيه ثلاثةُ مقاعد للقضاة، أشار الكاردينال للكاهن الذي يقف وراءه، فتناول الكتاب المقدس، وسارَ ناحية محمد وهتف:

- لتردّد القسم يا بيدرو.

كان قد حفظه من كثرةِ ما ردّده، فشرع الكاهن في تلقينه القسم:

- أقسمُ بالله وبالمسيح، وبالإنجيل الذي أمامي، على أنْ أقول الحقيقة، ليباركني الربّ إذا ما قلت الحقيقة، وليعاقبني إذا حنثت باليمين.

اقتربَ الكاهن أكثرَ من بيدرو عَلّه يسمع ما يقول، لكنه كان يتمتم بكلام غير مفهوم، رجعَ الكاهن ووضعَ الكتاب المقدس أمام الكاردينال قائلًا:

- سيدي الكاردينال، إنّه يتمتم بكلام غير مفهوم.

وبدأ القضاةُ في استجواب محمد الذي كان واهنَ القوى، كسيرَ النفس، يرتدي قميصًا أصفرَ اللون، مرسومًا عليه صليبٌ أحمر، وقد اعتمرَ قبعة مخروطية الشكل، طاف محمد بعينيه في الحاضرين، وجدهم يلبسون قناعًا أسود، لبثَ الرّعب في قلبه، لكن قلبه كان ثابتًا كالجبال.

هتفَ أحد القضاة:

- هل مازلت مصرًّا على إنكار الآثام التي اقترفتها؟ لقد أجمع الشهود أنك رجعت إلى الدين المحمدي.

تمتمَ بيدرو بكلام غير مفهوم، فأشار القاضي للكاهنِ ليقترب منه، اقترب الكاهن، لم يسمعْ غيرِ تمتماتٍ غير مفهومة، وسقط بيدرو من شدة الإعياء، فأشار الكاردينال بيده فتمّ جذبُ طرف السلسلة المقيّد بها بيدرو، فهبّ واقفًا رغمًا عنه.

- بيدرو، ماذا قلت يا بني؟

هتفَ به أحد القضاة متصنّعًا الرقة والعطف، فرفع بيدرو رأسَه وجاهد نفسه لينطق بها:

- لم أفعلْ شيئًا، منذ تمّ تعميدي وأنا أواظبُ على حضور القداس، أحرقتم قدماي، تغرقونني في الماء حتى تكادُ تنقطع أنفاسي، خلعتم أظافري وأنا أشاهد، وضعتم في فمي قطعةً حديدية لتمنعوني من الصراخ، لماذا

تفعلون بي هكذا؟!

هتفَ أحدُ القضاة متصنّعًا التأثر بكلمات بيدرو:

– يا بني، نحن نريد تخليصَك من تلك الآثام التي لحقت بك، أردنا أن ننقيك من الخطيئة، ونصعد بك إلى السماء.

تبسّم محمد رغمَ الألم الذي يكابده:

– إذا صعدتم أنتُم إلى السماء، فمَن سيهوي إلى الجحيم إذًا!؟.

استشاطَ القاضي غيظًا من كلمات محمد:

– يبدو أنّك عنيد يا هذا، وستضطرّنا إلى تعذيبك لنساعدك على الخلاص من تلك الآثام.

وبإشارةٍ من يده، هجم مجموعةٌ من الجنود ولفّوا جسده بالحبال ومدّدوه على منضدة، وتمّ شدّ الحبال على جسده فانبثقَ الدمُ تحت الحبال، أراد محمد أن يصرخ لكنه لم يستطع.

نظرَ الكاردينال للقضاة وهتف:

– يجبُ أن ننهي أمرَ هؤلاء الموريسكيّين، فجلالة الملكة تريد أنْ ترى حفل الإيمان المقدّس قريبًا، فلنحقّق لها رغبتها، ليتمّ الإعلان عن موعد حفل (الأوتودافي) يوم الأحد، وليتمّ التنسيقُ مع مفوّض الشرطة لتهيئة الساحة للاحتفال.

***

سوقُ المدينة

علتِ الشّمسُ الكاتدرائية، وألقتْ بظلال الأعمدة على ساحة سوق المدينة، وقد غطى قرع أجراسِ الكاتدرائية والكنائس المجاورة على كلّ صوتٍ في الساحات، وهذا إعلانٌ على قرب إقامة حفلة (الأوتودافي).

جلسَ عبد الرحمن في دكانه منهمكًا في عمله، الذي أصبح مرغمًا عليه، دكان ملازم لعطارته كان لصديقه عامر. نظرَ عبد الرحمن إلى دكّان صديقه محمد، وجده مغلقًا على حاله منذُ أن غُيّب محمد تحت أقبية الديوان المقدس.

أقبلَ عامر ناحية عبد الرحمن، فوجده حزينًا، ألقى عامرُ التحية على عبد الرحمن، وخاطبه قائلًا:

- كيف حالُك يا صديقي؟ أراك حزينًا على غير عادتك، أين ذهبت تلك الابتسامة؟

رفعَ عبد الرحمن رأسه وقال:

- كيفَ لنا بالابتسامة؟! لقد تغيّر الزمن، أصبحنا غرباءَ في أرضنا وأرض آبائنا لقد أخلّ القشتاليون بكلّ المعاهدات، لقد تمّ إجبارنا على تغيير عقيدتنا، كيف لي أن أحيا حياتين!

أرادَ عامر أن يخفّف من حزن صديقه:

- الحياةُ مقاومة بدون استسلام يا أبا محمد.

- أعلمُ يا صديقي أنّ الحياة مقاومة، ولا يمكننا الاستسلام، إنّه ليحزنني ما كنّا عليه يومًا، وما صرنا إليه، لقد ملكنا تلكَ الجزيرة، وما أجبرنا أحدٌ على ديننا، أجدادنا لم ينقضوا عهدًا قطعوه لأحد.

أرادَ عامر أن يُسكتَ عبد الرحمن، الذي اعتلاه الغضب:

- كنْ على حذر يا صديقي، فديوانُ التحقيق له جواسيسُ كُثر ينشرهم؟!، يتصيدون الإشاراتِ والكلمات، ويوشون بها إلى الرهبان لكي يوقعوا بفرائس جديدة فتنتعش جيوبُهم من أموالِ ذلك المسكين الذي سيلقي كلّ ألوان العذاب على أيديهم، لقد أصبحنا نسقطُ كأوراق شجرة في خريف عاصف.

- لنا اللهُ يا أخي، قد سئمتُ السكوت، وقد تمّ تنصيرنا، ومنعونا أن نتكلم العربية، وأنْ نصلّي لله، لقد مُنعنا من ثيابِنا العربية، إنّهم يريدون استئصال شأفتنا وطمس هويّتنا الإسلامية، أخبرني.. أين طارقُ بن زياد؟ أين موسى بن نصير؟ أين عبد الرّحمن الداخل؟ أين عبد الرحمن الناصر؟ أين يوسف بن تاشفين؟ أين كلّ من ضحّى بنفسه لفتح الأندلس ليروا ما آلتْ إليه حالُ الأندلس، لقد سلمها ذلك الملك الضّعيفَ خائرُ العزيمة بكلّ سهولة، متناسيًا كلّ مَن ضحّى بنفسه من أجل تعبيد هذه الأرض لله.

- لا تيْأس يا عبدَ الرحمن، فاليأسُ قاتلٌ للحياة، وسيجعل اللهُ بعد عُسْرِ يُسْر، ومهما طالَ ليلُ الظّلم فلا بدّ أن ينجلي ويشرقَ فجرٌ جديد يحمل عبقَ الحرية، والتاريخ يشهدُ لذلك كمْ عانت أممٌ قبلنا ثمّ أتاها نصر الله فجرًا.

غرناطة، يا جنّة الله في أرضه، لقد حرمنا اللهُ منكِ لأنّنا ارتكبنا خطيئة يوم أن تخلّينا عنكِ، وتركناك بدون مقاومة، لقد أقسمَ لنا القشتاليون أنهم سيحفظون عهودَهم ونحنُ ماذا فعلنا؟، انطلتْ علينا حيلُهم، وبعد أن تمكّنوا منكِ ساموك سوءَ العذاب، فلتغفري لنا تقصيرَنا في الدفاع عنكِ يا غرناطة.

حديثٌ ذو شجون بينَ عبد الرحمن وعامر فلم ينتبهوا إلّا وجلبةٌ تأتي من الخارج، فقام عبد الرحمن من مجلسه ليرى ماذا هناك؟!

وما هي إلّا لحظات حتى مرّ الموكبُ من أمام دكان عبد الرحمن، وكان أوّل ما يلفت النظرَ ذلك الصليبُ الكبير الذي يتقدّم الموكب معَ الرايات التي يحملها الرهبان الدّومنيكان التابعون لديوان التحقيق، خلفَ الصليب الكبير الموشّى بالحرير يسير راهبٌ يرتدي ثوبًا أبيض، ويحمل في يده صليبًا أسود، ويترنّم بترانيم دينية، ويمرّ أمام العرش الذي نصبَ في الساحة المخصّصة للإحراق، ثمّ أتى ليقف في الساحة، وأتى بعده فريقٌ من الكهنة يرتدون ثيابًا بيضاء، ويحملون في أيديهم صلبانًا سوداء، فمرّوا أمام العرش الملكيّ وهُم يردّدون ترانيمهم، وسيقَ الذين حكمَ عليهم بالحرق وهُم يرتدون ثيابًا صفراء قدْ رسم عليها صورٌ للشياطين والأفاعي.

مشهدٌ مَهيب أمام الجموع التي أتتْ لتشهد الاحتفال، والجموع تهتف بتعصب..

- أحرقوا الكفار.

وانهالتِ الأحجار على رؤوس المحكوم عليهم، لا تقوى أقدامهم على حمل أجسادهم الضّعيفة، فيهوي الواحدُ منهَم أرضًا.

مِن بين جموعِ المحكوم عليهم بالإعدام وقفَ شابّ قد ناهز على الثلاثين من عمره، والذَي غُيّب تحت أقبية الدّيوان المقدس، يدْعى محمد، أو كما تمّ تغيير اسمه من قِبَل الدّيوان ليصبح بيدرو، تعلوه عزّةُ النفس رغمَ جسده المعذّب، لكنه يقف شامخًا رغم ما به من الألم، يحيط السجّانون وجنودُ الديوان والرجال المنوط بهم إجراء مراسم الأوتودافي بالمحكومِ عليهم، كانوا يزيدونَ عن ثلاثين شخصًا، عليهم ثياب عليها تنانين وأفاعٍ ورَسوماتٍ ترمز إلى الشيطان.

وتمّ ربطُ محمد وباقي المحكوم عليهم على أعمدةٍ كانت مثبّتة في أكوام من الحطب الكثير، وكلّ كومة كان في مقابلها صليبٌ كبير لينظرَ إليه ذاك المعذّب بالنار لكي يموتَ وهو ينظر إليه.

***

قصرُ الحمراء

فناءٌ واسع مستطيلٌ، يحيط به من الأربعة اتجاهات أروقةٌ ذات عقودٍ تحملها مائة وأربعة وعشرون عمودًا من الرّخام الأبيض، في نهاية كلّ عمود أقواسٌ وتيجان وتوريقات محفورة بشكلٍ رائع، وشعار دولة بني الأحمر «لا غالب إلّا الله»، تتوسطها نافورة السباع مكوّنة من حوض مرمري مستدير يحمله اثنا عشرَ أسدًا يتدفّق الماء من أفواهها محدثًا أقواسًا مائية، تأمّلت الملكةُ باحةَ الأسود الرائعة، تلك التحفة المعمارية الشاهدة على عظمةِ تلك الحضارة، سؤالٌ ظلّ يراودها منذ أنْ دخلت غرناطة أوّل مرة، لماذا سمح الربُّ لهذا الجَمال أن تصنعه تلك الأيادي الآثمة؟ أمَا كان أولى أن تصنعه أيادي القشتاليّين أنفسهم، لماذا سمحَ لتلك الأيادي أن تُخرج تلك الروائع في المباني والقصور؟! ظلّ ذلك السؤال يُعاد عليها كلّما وقفت وتأمّلت في تلك الروائع، إذًا.. لماذا سمح الربّ بإبداع تلك الحضارة التي حكمَ عليها بالتدمير والفناء على أيدينا؟ لقد منحها الربّ شرفَ قيادةِ تلك النفوس غير المؤمنة إلى حظيرة الكاثوليكية، هي لا تصدّق أنّ ذلك الجمال الفتّان قد أصبح لها، وهي التي لم تكنْ تحلم بمثل هذا القصر الذي يعدّ تحفة معمارية رائعة، وقد تنازلَ لها عنه ملكٌ كان له من اسمه نصيب، رغم مرور سنوات على استحواذها على غرناطة؟! كان ملكًا صغيرًا في فكره، كيف تنازل لهم عن غرناطة؟!!

قادمًا إليها يحثّ الخطى يرسفُ في ثيابه الحريرية مخاطبًا إيّاها:

– مليكتي، لمَ أنتِ شاردة الذهن وحزينة رغم ما حققناه من انتصار على الكفرة؟!

يخرجها صوتُه من حالتها التي كانت عليها، أفاقتْ على وقع سؤاله لها، فزوت ما بين حاجبيها وقالت:

– عنْ أيّ انتصار تتحدّث يا فرناندو؟! نعم، نحن أخذنا غرناطة، وإذا لم يسلمها لنا أبو عبد الله لكنّا اليوم خارجَ أسوارها في مدينة سانت يافي نقاسي ويلات البرد والزّمهرير، لكنّها بركة القدّيسين الذين حفظونا من ويلات العذاب، وساعدنا خياناتُ وزراء أبي عبد الله الصّغير، لولاهم ما أنجزنا شيئًا، الخيانة تقتل الأممَ، فخائنٌ واحد أشدّ على أيّ أمّة من الجيوش الجرارة، لكن رغم امتلاكنا للمدينة إلّا أنّ أهلها بقوا متمسّكين بدينهم، إنّ ولائهم ليس للتاج القشتالي.

إجابتُها فجّرت ذلك الغضبَ الدفين الذي حواه قلبُه على المسلمين، تذكّر كيف تمّ هزيمة جيشه في جبال البشرات والجبل الأحمر، فصاح غاضبًا:

– لقد سئمتُ من هؤلاء الموريسكيّين الذين يرفضون التخلّي عن دينهم رغم كلّ ما نفعلُه من تضييقٍ عليهم، وفرض التّنصير عليهم، إنهم يتحدّوننا، يتنصرون ويعمدون، ثمّ يرجعون مسلمين ثانية، الويل لهم.

رأتِ الغضب يتطايرُ من عينيه، يبدو أنّه تذكر هزيمة جيشه وقتل قائده، لقد سوى المسلمون بسمعتِه الأرض في كلّ ممالك أوروبا، اقتربتْ من فرناندو مداعبة خصلات شعرها، وعملت على تهدئته قائلة:

- لا عليك، لقد أخبرني قداسةُ الكاردينال خمنيس أنّه لن يألوا جهدًا في تتبع أُولئك المهرطقين الخارجين عن سلطان الكاثوليكية.

- أنا أعلم أنّ الرهبان لن يتوانوا في تنفيذ المخطط الذي رسمه الكاردينال لتنصير المسلمين، لكنّ الرهبان يتعاملون مع أناس أذكياء جدًّا، لن يتخلوا عن دينهم بسهولة كما نظن، إنّهم يحسنون التمويه، لم نكن نتوقّع أن يظلوا كلّ هذه الفترة متمسّكين بدينهم، إذا لم نستطعْ أن ننصّرهم؛ فحتمًا سننصر أبناءهم وأحفادهم.

- لكنّنا لهم بالمرصاد، سنقضي على الديانة المحمدية، لن يكون لها مكان في قشتالة.

قالها الكاردينال خمنيس، وكان ظلّه قد سقط طويلًا على أرضية باحة الأسود.

- سنظلّ نخنقهم ونضيّق عليهم في البيوت والشوارع، حتى في كلامهم سيكون لنا عليهم سلطان، أنفاسُهم سنحاسبهم عليها، سنسومهم سوء العذاب، إنهم يهزؤون بنا، يمارسون عقائدَهم الفاسدة في خلواتهم، لقد أثبتنا لكم أنّه الحلّ الوحيد في سائر المملكة، لكي يعمّ السلام في سائر الأرض.

الحرق.. الحرق، كانت تلك الصورةُ البشعة تتربّع على عرش تلك الفترة، صورة المحرقة وتخيّل كائنٍ حيّ في لظى النيران وهو يرتدي جلباب السانبنيتو، وموسومًا بعلامة الشيطان، ويصرخ متأوّهًا مِن لظى النيران، ثمّ يتلوّى، ثمّ يطبق الصمت الطويل ولا يبقى غير أزيز النيران.

تنحني إيزابيلا لتقبّل يد الكاردينال فيسحب يدَه بسرعة، ارفعي رأسكِ يا بنيتي مثلك لا يحني رأسَه أبدًا بعد أنْ أعاد الكاثوليكية لسابق عهدها في الجزيرة، بعد أن استولى عليها الكفرة.

ترتسمُ ابتسامة على شفتي إيزابيلا من كلام الكاردينال خمنيس وتقول:

– يا سيدي، هذا بفضل توجيهاتكم، ونحن نضعُ ثقتنا فيك قداسة الكاردينال، ونعلم أنّك تعمل على نجاةِ هؤلاء من الخطيئة، وأنّك لا تألوا جهدًا لتضمهم إلى حظيرة الكاثوليكية لينعموا بالفردوس.

تمتمَ الكاردينال خمنيس، وهو يرسم الصليب على نفسه:

– فليباركنا الربّ يا بنيتي، نحن نفعل ما يتحتّم علينا فعله لإنقاذ هؤلاء الكفرة من النار.

سارَ فرناندو متّجهًا إلى بركة الأسود واضعًا يدَه على إحداها وقال:

– قداسة الكاردينال، إنّ هؤلاء الكفرة عنيدون جدًّا، ولن يستسلموا، لقد أدركوا أننا لا نفي لهم بالعهود، وأصبحوا أكثر تمرّدًا من ذي قبل،

فليعمل رجال الديوان المقدّس على زيادة البحث والتحقيق عن المارقين من الدين بعد أن تمّ تنصيرهم.

فرناندو موجهًا كلامَه لكاردينال خمنيس ويظهر عكس ما يبطن، فهو يعلم أن الموريسكيّين هم ثروةٌ يجب استغلالها وتصفية أموالهم والاستفادة منهم اقتصاديًّا، فهم حرفيّون ماهرون لأبعدِ درجة، وقد ملأت الابتسامةُ وجه فرناندو وهو يهتف:

- هل نسيتم أنّ اليوم ستقام حفلة الإيمان في الساحة الكبيرة، لقد مرّ وقت منذ آخر احتفالٍ شهدناه سويًّا، إنّني أحبّ أن أرى عذابهم، أجدُ في نفسي متعة مشاهدتهم وهُم يحترقون، إنّ مشاهدة عذاب الآخرين متعة لي؟! أليس كذلك يا مليكتي؟!.

قالَها فرناندو ساخرًا، وقد طافَ الكاردينال بعينيه في المكان فوقعت عينه على عبارة "لا غالب إلّا الله"، فهتف:

- أين هو ربُّ الأندلسيّين لينقذهم من يدي، ليخلّصهم من عذابي؟!

أطلقَ ضحكة فتردّد صداها في أرجاء باحة الأسود، وأردف قائلًا:

- كيف ننسى؟! ونحن نفعل ذلك من أجل تطهيرهم من الآثام الجسام، لقد تكفل الدّيوانُ المقدس بمتابعتهم كلّ تلك السنوات من أجل خلاصهم، لكنهم معاندون متمسّكون بدينهم المحمدي، لم تفلحْ معهم سياسة اللين التي اتبعها المطران طلبيرة، ولم تؤتِ ثمارَها.

ضحكَ ثلاثتهم، ثمّ توقفت إيزابيلا قائلة:

- كنّا نظنّ أنْ نرى شعب غرناطة قد أضحى مسيحيًّا في غضون سنوات قليلة، لكنْ أخفقنا مجددًا، المورو لا يفلح معهم اللّين ومعاملتهم بالحسنى، لقد قتلوا مبعوثكم في حيّ البيازين وهو يمارسُ عمله في تنصيرهم، عليهم أن يختاروا بين التّنصير أو النفي.

تذكّر فرناندو موعدَ الموكب والمحكمة التي ستقام اليومَ في أكبر ساحة في غرناطة فخاطبهم قائلًا:

- سنتحدّث في وقتٍ آخر عن المستجدات في أمور المملكة، وكيف سنواجه هؤلاء المورو، ولديّ ما أخبركم به عن الأرض الجديدة.

***

بين الجموعِ كان يقف عبدُ الرحمن وعامر من بعيدٍ يحترقون داخلهم على رفيق صباهم الَذي سيحرَق بالنار لأنّ جرمه الوحيد أنّه وجِدَ متلبسًا يؤدّي صلاة المسلمين، فتمّ اعتقاله من قِبَل ديوان التحقيق، وقبع في سجن الديوان المقدس، لا أحد يدري أحيّ هو أم لا، وكم قاسى من صنوفِ العذاب على أيدي رجالِ ديوان التحقيق، فسقطت دمعة من عبد الرحمن رغمًا عنه، فمسحَها بسرعة قبل أن يلاحظَه أحد، لكن كانَ قد فات الأوان، لأنه يعلمُ أنّ في هذه الاحتفالات يكثر الجواسيسُ والعيون التي يتمّ نشرها من قبل الديوان لصيدِ الضحايا الجدد.

واقفٌ بين الجموع، يسيرُ بضع خطوات ثمّ يقف يمعنُ النّظر في الوجوه، لقد شاهده للتو، نعم.. لقد شاهده عندما سقطتْ منه دمعةٌ حزنًا على المهرطقين، أخرج دفترَه وسجّل فيه اسم ألفونسو العطار (عبد الرحمن).

***

جلسَ الملك والملكة، وبجوارهم جلس رئيسُ الديوان والأساقفة والمقربون من البلاط الملكي من وزراء وقادة، كلّهم أتوا ليشاهدوا الاحتفال، ولا يجدون غضاضة في صدورهم وهُم يشاهدون المعذّبين يصرخون من الألم، إنّهم يستمتعون بعذابهم.

نهضَ رئيسُ الديوان المقدّس من مجلسه وهو يحملُ صليبًا ذهبيًّا، سار إلى الموضع الجالس فيه الملك فرناندو، فناوله الصليب قائلًا:

- يا صاحبَ الجلالة، بينما تحملُ بيمينك الصليب المقدّس، نرجو منكم أن تقسموا على تعضيدِ سلطان الديوان المقدس في البلاد.

أمسكَ فرناندو الصليب في يده، وقبّله، وهتف قائلًا:

- أقسمُ على حماية الدّيوان المقدس، وتثبيت سلطانه في البلاد، وأنْ أكون خادمًا للكاثوليكية، وابنًا بارًّا للكنيسة وليباركنا الرب.

تحدّث رئيس الديوان ثانية مخاطبًا فرناندو:

- وتقسمُ يا صاحب الجلالة على أنّ ما يفعله الديوان المقدس، وما يجريه من أحكامٍ؛ موافقٌ لتعاليم الكنيسة الرسولية الرومانية، وأنّه مطابق لشرائع

بلادكم والتي ترمي لتطهير البلاد من الكفرة والزنادقة وأصحاب التعاليم الشيطانية.

فصاحَ فرناندو ثانية:

- أقسمُ على هذا أيها الكاهن.

صاحَ الكاهن في الجمع الغفير قائلًا:

- ليشهدَ الجميع على قسم الملك، وليبارك الربّ جلالة الملك فرناندو مادام سندًا للدّيوان المقدس وتعاليم الكنيسة الرومانية.

عادَ رئيس الديوان إلى مجلسه في المنصّة الملكية، وتقدّم كاهنٌ ضخمُ الجثة جهوري الصوت، ثمّ ارتقى على مكانٍ مرتفع قد أعدّ وسط الساحة، وقد أخذ في تلاوة الحكم من لائحة الميريتوس (لائحة الخطايا المقترفة وما يقابلها من عقوبات).

- إنّ هؤلاء الكفرة قد استحقّوا الحرق لأنهم استخفوا بالأحكام المقدسة، وحقروا الكنيسة، وأخذوا الشيطان وليًّا وقد رجعوا إلى الديانة المحمدية.

لذا وجبَ حرقهم بالنار عملًا بقول السيد المسيح له المجد: «**مَن ليس معنا فهو علينا، وأن كلّ شجرة لا تثمر وجبَ قطعها وإلقاؤها في النار، إنّ الذنب ذنبهم ودماءهم على رؤوسهم**».

عدّد الكاهن الأحكامَ، وملابساتها، وكيف تمّ القبض على المتهم:

- بيدرو (محمد)، خمس وثلاثون عامًا، من مواليد غرناطة، ويسكن في حيّ البيازين، وكان يعمل وراقًا، تمّ تعميده عام ١٥٠٢م، ارتد وعاد إلى الإسلام، كان يعيش حياةً مزدوجة مسيحيًّا في الخارج مسلمًا في الداخل، تمّ الإمساك به وهو يؤدّي صلاةَ المسلمين بعد أنْ وشى به ابن بار من أبنائنا، لا يأكل لحم الخنزير، ولا يعاقر الخمر، ولا يذهب إلى الكنيسة في أيام الآحاد، ويستهزئ بالعظات التي تُلقَى في الكنيسة، ولم يبدُ عليه الندم على ما ارتكب من خطايا أثقلت روحه، وكان يفترضُ به أن يكون إنسانًا مخلصًا لأمّنا الكنيسة، وقد صودرت أمواله، وحكمَ عليه بالإعدام حرقًا، وسيتمّ تسليمُه إلى السلطة المدنية لتنفيذ باقي الإجراءات؛ لأنّ الديوان المقدس يترفع عن إراقة الدماء.

أنهى الكاهنُ لائحة الميريتوس، ثمّ صرخ في الجموع:

- لعنَ الله المهرقين في مأكلهم ومشربهم، في صحْوهم ونومهم، في مجيئهم وذهابهم، لعنوا في حياتهم ومماتهم، ومُدّ لهم في آثامهم، وكان الشيطان عن يمينهم، وخابَ عملهم، وقصرت أيامُهم وافتقرت، وتمتّع غيرهم بأملاكهم، وتيتّم أطفالهم، وترمّلت زوجاتهم، وكتب الربُّ الفاقةَ على أطفالهم، ولا يجدون من يرحمهم، ويفتقر أطفالهم وينبذون، وتبقّى إثمُهم حاضرًا في الذاكرة الإلهية إلى الأبد، فلتلعنهم الأرضُ والجبال والقديسون والملائكة.

عندها صرخَ أحدُ الكهنة من الذين كانوا يقفون خلفه:

- المجدُ لسيّدتنا والدة الإله، ومبارك كلّ مؤمن طائع.

تعالتْ أصوات الجموع هادرة:

- آمين.

لحظاتٌ وتقدّم كاهن يحملُ في يده صليبًا مِن عاج، ومرّ أمام المحكوم عليهم بالإعدام ويقفُ أمام كلّ واحدٍ منهم، ويبدأ في مخاطبة المحكوم عليهم بالإحراق:

- هل تعلنُ توبتك وتقبّل الصليب وتعلنُ عن أسماء مَن كان معك من المهرطقين وتُعاد إلى السجن ليتمّ التثبت من توبتك ثمّ يعفى عنك؟!

الحياةُ غالية، وهذا الموقف يجعل الشخصَ يرجو الحياة، يريد أيّ شيء يتعلق به ليكون حبلَ نجاته فيفعلُ ما يريدون، لكنّه لا يعلم أنّهم يكذبون، يريدون استنزافَ الثروات وجلب معذّبين آخرين لتنتعش جيوب الكهنة.

وحينما أتى الدورُ على محمد قال له الكاهن:

- بيدرو، ألم يتمّ تعميدك وأقسمتَ أن تكون ابنًا صالحًا؟، لماذا أخلفت وعدك وعدت إلى الكفر؟، لكنْ لديك فرصة أخيرة، هل تعترفُ بخطيئتك وتُقبّل الصليب، وتخبرنا بمَن كان معك؟

قالها الكاهنُ وهو ممسكٌ بالصليب أمام وجه محمد.

بقلبٍ ثابت يتحدّث محمد (بيدرو)، وعلى وجهه تعلو ابتسامةٌ ساخرة تزيد من غيظ الكاهن:

– وما خطيئتي؟! هل لأنّي أعبد الله، وأؤمن برسولي محمدﷺ؟، هل يكون هذا ما تعدّوه كفرًا وهرطقة؟! أنتم مَن خدعتمونا بعهودكم الكاذبة، ونحن ماذا فعلنا.. وثقْنا بكم، وبوعودكم البرّاقة، وسلّمنا لكم مدينتنا، وكان حقًّا علينا أن نقاتلكم، يومَها بُلينا بحاكم ترك الجهادَ في سبيل الله، ووزراء خانوا الدينَ وهم اليوم منكم، قد تنصّروا قبلَ أن تفرضوا علينا التنصيرَ القسري، لأجل هذا هُزمنا؟!

احتدّ الكاهن على محمد وقال:

– لا تعاند كثيرًا، إنّك في لحظاتك الأخيرة، أنقذْ نفسك من النار، إننا نسعى لخلاصِك من الخطيئة.

يبتسم محمد في عزّة، رغم ما به من الألم:

– نيرانُكم هذه ما هي إلّا بوابة العبور إلى جنة الخلد.

تطايرَ الشّرر من عيني الكاهن وقال:

– هل هذا آخرُ ما عندك؟ لقد جنيت على نفسك يا بيدرو، نحن نسعى لخلاصك من الخطيئة التي علقت بأرواحكم، لقد بعتُم أنفسكم للشيطان، وتركتم ما يتوجب عليكم بعد التعميد.

قلّب محمد ناظريه في تلك الجموع الغفيرة، والتقتْ عيناه بعيني الكاردينال الجالس بجوار الملك والملكة، وهتف في الكاهن:

- كنّا آمنين في وطننا، نعبدُ الله ثمّ عدوتم علينا وأرغمتمونا على ترك ديننا، الفرق بيننا وبينكم يا هذا أنّنا حكمْنا تلك الأرض، وكان العدلُ منّا سجية، وما أرغمنا أحدًا على تركِ دينه، فلمّا تقلّب الزمن ودارَ وحكمتم أتيتُم بشنائع الأخلاق، ولتعيَها أذناك جيدًا أيها الكاهن.. حتمًا سيدور عليكم الزمانُ كما دار علينا، وسيلعنكم التاريخ.

اعتلى الغضبُ الكاهن، وفي محاولة منه لإخفاء غضبه، لكنّها باءت بالفشل؛ فاحتد الكاهن قائلًا:

- لا تعاند كثيرًا، فقد حانت اللحظةُ لكي تجني ما زرعته من الكفر والهرطقة.

علتْ وجهَ محمد ابتسامةٌ مشرقة وقال:

- دعكَ من كلّ هذا، فالتاريخ لا يرحمُ الظالم، سيأتي اليوم الذي يشهد فيه التاريخ أنّكم مَن أساء للبشرية بأفعاله.

لوّح الكاهن بيدِه لرئيس المحكمة أنّ كلّ شيء انتهى، فترك خمنيس مكانه بجوار الملك والملكة، وارتقى المنصّة ليعلنَ بإشارة من يدِه إنهاءَ حياة العشرات من الرجال والنساء، وقد نسي- أو تناسى- أنّ التاريخ يكتب للظّالم بمداد المظلومين، وأشار خمنيس لجلّاديهم بإضرامِ النار، وأضرمتِ

النار في المحكوم عليهم بالإعدام، وما هي إلّا لحظات وبدأتْ تتصاعدُ منهم روائح شيّ من أجسادهم، وفاضت أرواحهم إلى بارئهم تشْكو له الظلم والعذاب الذي تعرّضوا له. أُضرمت النارُ أسفل قدمي محمد لحظات وتسري النار في الحطبِ فيأتيه الألم من أسفل قدميه، تصرخُ كلّ خلايا جسده من الألم، يا الله..!!، مَن لهذا المعذّب غيرك يا الله..، تكبّله القيود في قدميه ويديه لا يستطيع الهربَ من النيران، يلفح وهجُ النيران جسدَه الموثق عن اليمين وعن الشمال، فتدركه رحمةُ الله فتغادر روحُه لتشتكي إلى الله ظلمَ أهل الأرض، خمدت الأصوات وانقطعت الكلماتُ، ولم يبقَ إلّا أزيز النار، وصوت فرقعات الحطبِ المشتعل، ورائحة شواء تزكم الأنوف، بضعُ ساعات وخمدت النيران، وأصبحوا رمادًا.

انفضّ الجمع، وأوى كلّ إلى بيته، وعادت الحياة كما كانت، وكأنّ شيئًا لم يكن، لقد تحجّرت قلوب القشتاليّين، إنّهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعًا لأولئك المعذبين.

عادَ خمنيس- ذاك الكاهن المتعصّب، الذي يحمل الحقدَ على الإسلام وأهله- إلى الكاتدرائية، كان يحملُ حقدًا كبيرًا دفعه إلى معاداة كلّ ما هو إسلامي، وعاد الكهنة إلى مقرّ الديوان، وانصرف المتفرجون إلى بيوتهم، وانصرف عبد الرحمن قافلًا إلى محلّ عمله، ولم يطق أن يجلس في عمله.

- انْهِ ما في يديك من عملٍ، وأغلق الدكان؛ فقد سئمنا الحياة.

قالها عبد الرحمن لفرناندو، وسارَ على غير هدى، شاردَ الذهن يسترجع بذاكرته تلك الأيام التي جمعته بمحمد، واليومَ في الساحة يرى محمدًا قد أصبح جثّة متفحمة، ففاضت عيناه بالدموع، في شوارع غرناطة تلك المدينة التي عمّرها المسلمون قرونًا طويلة أصبحت الآن مظلمة موحشة، مرّ أمام الكاتدرائية التي كانت في يوم من الأيام مسجدَ غرناطة الكبير، فانشطر قلبُه حزنًا، لقد قضى في أروقةِ المسجد أروعَ وأسعد أيام حياته، يومَ كان طفلًا يتسابقُ مع أصدقائه في حفظِ كتاب الله، ودراسة الحديث النبوي الشّريف، اليوم منهم مَن يقبع تحتَ أقبية الديوان المقدس، ومنهم مَن هاجر إلى عدوة المغرب، ومنهم مَن مات أو قُتل، أو أُحرق بفعلِ ذلك الديوان الذي يسعى لاستئصال شأفة المسلمين من وطنهم.

وجدَ عبد الرحمن نفسَه كعادته، يقف على ضفاف نهر شنيل الذي له ذكريات في نفسه، الذّكريات لا تُمحى، تظلّ في الذّاكرة تصارع الواقعَ فيغلبها تارة وتغلبه تارة، طافت بمخيّلته حالَه وحال بني جلدتِه وأمّه وزوجه وأبنائه، وذاك الطّفل الذي سيخرج للدنيا ليجد أنّ الحياة تقسو على المسلمين في أرضهم، كيف سيحيا تلك الحياة القاسية التي فُرضت عليهم كمسلمين، كيف سيعيشُ في وطنٍ استولى عليه الأعداء فلم يرقبوا فيهم إلًّا ولا ذمّة، ولم يحفظ البلاط الكاثوليكي تلكَ الأيمان التي قطعها الملكان على نفسيْهما، وقامَا بنقضِ بنود معاهدة التسليم بمباركة بابا روما، كلّ هذا كان يشغل بالَ عبد الرحمن وهو يجلسُ على ضفاف النهر، طافتْ بمخيّلته ذكريات كثيرة تحسر

على زمان العزة، لكن ليس له مفرّ من الواقع القاسي، لملمَ ذكرياته وعاد يجرّ أحزانه إلى منزله، سار بخطوات مثقلةٍ إلى بيته ليجدَ زوجه في استقباله.

- أينَ كنت يا عبد الرحمن؟، لقد أقلقتنا عليك، خشينا أنْ يكون قد مسّك سوء، لقد مرّ عامر مِن هنا، وأخبرنا أنّك أغلقت الدكان، وسرت على غيرِ هدى منك بعد أنْ شاهدت صديقك محمد وهو يتلظّى في النيران.

- لا تقلقي يا فاطمة، أنا بخير.

أجابَها بكلمات تفيضُ حزنًا، فأرادت فاطمة أن تخفّف عن زوجها الحزن الذي يعتصر قلبه:

- لا تحزن يا أبا محمد، فالحزن يقتاتُ على النفوس، لنا الله سينجّينا منها ومن كلّ كرب.

جلسَ عبد الرحمن على الأريكة الموضوعة في حديقة المنزل، ووضع رأسه بين كفيه:

- وكيفَ لا أحزن يا فاطمة، وأنا لا أملك من أمرِ نفسي شيئًا، ابننا محمد وأخوه القادم للدنيا سيقاسونَ من الآلام، ونحنُ لا نملك لهم أن نبصرهم بدينهم، لقد أنشأ الدّيوانُ المقدس مدارسَ لتنصيرهم، ليخرجوا وهُم لا يعلمون شيئًا عن دينهم، ولا حضارتهم، ولا أجدادهم، إنّهم يزرعون فيهم حقدًا على الإسلام، وسيجنّدون أطفالنا ليعملوا جواسيس لديوان التحقيق.

– لقد تدخّلوا في حياتنا بشكل كبير، تدخّلوا في أدقّ التفاصيل في حياتنا، لقد اقترب مولدُ ابننا الثاني، وسنرْغَم على تعميده في الكنيسة، وإذا لم نفعل سيتّهموننا بالهرطقة.

– لا تقلقي، لقد جعل الله لنا مخرجًا، لقد أرسل لنا مفتي وهران سيدي أحمد بو جمعة رسالةً ردّ فيها على ما عرضناه عليه من حالنا، وكيف نصلّي ونصوم ونحن نُجبَر على مخالفة أحكام الإسلام.

أشرقَ وجهُ فاطمة وقالت:

– هل قرأت رسالته؟

– نعم قرأتها، وكتبتُها أيضًا وهي معي الآن.

شمّر عبد الرحمن عن ذراعه، وبدأ في فكّ الضّمادة عن ساعده، وأخرج ورقة من تحت الضّمادة وقال:

– ها هي الرّسالة يا فاطمة.

ندّت عن فاطمة ابتسامةٌ خفيفة، والتقطت الورقة وهتفت:

– لقد تعلّمت حيلًا جديدة يا أبا محمد، لم أعهدك هكذا.

– الأيامُ تفرض علينا تعلّمَ أشياء جديدة، ولا بدّ لنا من إتقانها.

بدأتْ فاطمة في قراءة الرسالة:

(الحمدُ لله، والصّلاة على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا، إخواننا القابضين على دينهم، كالقابضِ على الجمر، ممّن أجزل اللهُ ثوابهم فيما لقوا في ذاته، وصبروا النّفوس والأولَاد في مرضاته، الغرباء القُرَباء إنْ شاء الله من مجاورة نبيّه في الفردوس الأعلى من جنّاته، وأورثوا سبيلَ السّلف الصالح في تحمل المشاقّ وإن بلغت النفوس إلى التّراقي، نسأل اللهَ أن يلطف بنا، وأن يعيننا وإيّاكم على مراعاة حقّه بحسن إيمان وصدْق، وأن يجعل لنا ولكُم من الأمور فرجًا، ومن كلّ ضيق مخرجًا.

بعدَ السّلام عليكم من كاتبه إليكم، مِن عُبيد الله أصغرِ عبيده وأحوجِهم إلى عفوه ومزيده، عبيد الله تعالى أحمد ابن بو جمعة المغراوي ثمّ الوهراني.

كان الله للجميع بلطفِه وستْره، سائلًا من إخلاصكم وغربتكم حسنَ الدعاء، بحسن الخاتمة والنّجاة من أهوال هذه الدار، والحشر معَ الذين أنعم الله عليهم من الأبرار، ومؤكّدًا عليكم في ملازمةِ دين الإسلام، آمرينَ به من بلغ من أولادكم. إن لم تخافوا دخولَ شرّ عليكم من إعلام عدوّكم بطويتكم، فطوبَى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد النّاس، وإنّ ذاكرَ الله بين الغافلين كالحيّ بين الموتى، فاعلموا أنّ الأصنام خشب منجور، وحجرٌ جلمود، لا يضرّ ولا ينفع، وأنّ الملك ملك الله، ما اتّخذ الله من ولد، وما كانَ معه من إله، فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصّلاةُ ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هديةٌ لفقيركم أو رياء، لأنّ الله لا ينظرُ إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم،

والغسل من الجنابة، ولو عومًا في البحور. وإنْ مُنعتم فالصّلاةُ قضاء بالليل لحقّ النهار، وتسقط في الحُكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمّم ولو مسحًا بالأيدي للحيطان، فإنْ لم يمكن فالمشهور سقوطُ الصّلاة وقضاؤها لعدمِ الماء والصعيد، إلّا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى ترابِ طاهر، أو حجر، أو شجر، ممّا يُتيمَّم به، فاقْصدوا بالإيماء، نقله ابن ناجي في شرحِ الرّسالة لقوله ﷺ فأتوا منه ما استطعتم.

وإنْ أكرهوكم في وقتِ صلاةٍ إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم، فاحرموا بالنية وانْووا صلاتكم المشروعة، وأشيروا لَمَا يشيرون إليه من صنم، ومقصودُكم الله، وإن كان لغيرِ القبلة تسقطُ في حقّكم كصلاةِ الخوف عند الالتحام، وإنْ أجبروكم على شرب خمْر فاشْربوه، لا بنية استعماله، وإنْ كلّفوا عليكم خنزيرًا فكُلوه ناكرينَ إيّاه بقلوبكم، ومعتقدين تحريمَه، وكذا إنْ أكرهوكم على محرّم، وإنْ زوّجوكم بناتهم، فجائزٌ لكونهم أهل الكتاب، وإنْ أكرهوكم على إنكاحِ بناتكم منهم، فاعتقدوا تحريمَه لوْلا الإكراه، وأنّكم ناكرون لذلك بقلوبكم، ولو وجدتم قوّة لغيَّرتموه.

وكذا إنْ أكرهوكم على ربًا أو حرام فافعلوا مُنكرين بقلوبكم، ثمّ ليس عليكم إلّا رؤوس أموالكم، وتتصدّقون بالباقي، إنْ تبتُم لله تعالى، وإنْ أكرهوكم على كلمة الكفر، فإنْ أمكنَكم التوريةُ والإلغاز فافعلوا، وإلّا فكونوا مطمئنّي القلوب بالإيمان إنْ نطقتم بها ناكرينَ لذلك، وإن قالوا اشْتمُوا محمدًا فإنّهم يقولون له مُمَدْ، فاشتموا مُمَدًا، ناوين أنه الشّيطان،

أو ممَد اليهود فكثيرٌ بهم اسمه، وإنْ قالوا عيسى ابن الله، فقولوها إنْ أكرهوكم، وانْووا إسقاطَ مضافٍ أيْ عبد اللاه مريم معبود بحق، وإنْ قالوا: قولوا المسيح ابن الله، فقولوها إكراهًا، وانووا بالإضافةِ للملك كبيتِ الله لا يلزمه أن يسكنه أو يحلّ به، وإن قالوا: قولوا مريم زوجة له، فانْووا بالضّمير ابن عمّها الذي تزوّجها في بني إسرائيل، ثمّ فارقها قبلَ البناء، قاله السهيلي في تفسير المبْهم من الرّجال في القرآن، أو زوجها الله منه بقضائه وقدره، وإنْ قالوا عيسى قد توفّي بالصّلب فانْووا من التوفية والكمال والتّشريف من هذه، وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره، وإظهار الثناء عليه بين الناس، وأنه استوفاه اللهُ برفعه إلى العلو، وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدُكم إنْ شاء الله على حسبِ ما تكتبون به، وأنا أسأل اللهَ أن يدير الكرّةَ للإسلام حتى تعبدوا اللهَ ظاهرًا بحول الله، من غير محنةٍ ولا وجلة، بل بصدمة الترك الكرام.

ونحنُ نشهدُ لكم بين يدي الله أنّكم صدقتُم الله، ورضيتم به، ولا بدّ من جوابكم، والسّلامُ عليكم جميعًا.

"يصلُ إلى الغرباء إنْ شاء الله تعالى".

***

زحفَ الليلُ حثيثًا على المدينة ملقيًا السكونَ على طرقاتها، كانت ليلة ميتة لا يتخللها أيّ نسيم رغم أنّها كانت من ليالي الربيع، عمياء لا تبصر فيها

نجمٌ يسطعُ في السماء قدْ غاب قمرها، أوى كلّ حيّ إلى مضجعه إلّا عبد الرحمن ظلّ جالسًا في مكانه السري الذي أعدّه تحت قبو منزله، مكانٌ يزخر بالكتب التي أخفاها من ديوان التّحقيق ومصلى صغير، أتمّ صلاته ورفع يديه بالدعاء مناجيًا ربه...

(إلهي، لقد أظلمتِ الدنيا علينا، وأحاط بنا الأعداءُ كإحاطة السوار بالمعصم

إلهي، أشكو إليك ضعفَ قوّتي وقلّة حيلتي وهواني على الناس

يا أرحمَ الراحمين، أنتَ ربّ المستضعفين وأنتَ ربّي، إلى مَن تكلني؟

إلى بعيد يتجهّمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟

يا أرحمَ الراحمين، لقد أجبرنا الإسبان على السجود للصلبان.

يا ربّي، إنّهم يسوموننا سوءَ العذاب يقتلوننا ويُنصّرون أبناءنا ويستحيون نساءنا.

إلهي، قد عظُمَ الخطْب، واشتدّ الكرب، وتفاقم الأمر، ولا إله إلّا أنت، إليك المشتكى وأنت المُستعان، ولا حول ولا قوة إلّا بك، اللّهم الطُف بحالنا وارحم ضعفنا...)

استرسلَ عبد الرحمن في دعائه، وعيناه لا تتوقفان عن ذرف الدموع، حتى قاطعته طرقاتٌ على الباب، فكفكف عبد الرحمن دموعه، ونادى:

- ادخلي يا فاطمة.

- لا ترهقْ نفسك يا عبد الرحمن!

- العالمُ موحِش يا فاطمة.

ربّتت على كتف زوجها بيدٍ حانية وقالت:

- حتماً سيأتينا نصرُ الله، مَن كان مع الله لا يخشى سواه، لقد تقدّم الليل ويجب أن ننامَ؛ لأنه يتوجب علينا الذهاب الي القداس صباحًا.

- لنْ نذهب يا فاطمة، سنغلق علينا دارنا وكأنّنا ذهبنا إلى القداس.

تحاولُ فاطمة إخفاءَ مشاعرها والحالُ يُغني عن المقال، يكفكف عبد الرحمن دمعات سقطتْ على وجنتيها.

- ما بكِ يا فاطمة؟، لقد قلتِ قبلَ قليل إنّ فرج الله قادم، ماذا دهاكِ؟، لم هذه الدّمعات الغالية؟!

تغلبُها عاطفة الأمومة على أولادها، فيزداد بكاؤها:

- تتقطّع نياطُ قلبي وأنا أرى ولدي ذاهب إلى المدرسة التي أنشأها الديوان، كلّ أم تفرحُ عندما تشاهد ابنها يتعلّم ويذهب إلى دروسه، ولكنّي أشيّعه وكأنه ذاهب بلا رجعةٍ في غمار حربٍ ضروس لا هوادة فيها، وعندما يعود كأنّ روحي قد عادت إليّ، فآخذُه بين ذراعي بلهفةِ الأمّ التي طال عنها غياب ولدها أعوامًا كثيرة، وأيقنتُ أنّه لن يعود، وما يحزنني تلك النظرات التي تتساءل لماذا أعامله هكذا، أودّعه باكية وأستقبله باكية.

- لا تحزني، إنْ شاء الله سأغرس فيه عقيدتنا الإسلامية، وأعلّمه القرآن والعربية لغة أجداده.

- مازال صغيرًا، وأخشى عليه من زلّة لسان تؤُدّي بنا إلى الموت، فأرواحنا ستكون معلقة بشفتيه.

صمتَ لحظات، ثمّ أردف قائلًا:

- لا تقلقي، سيعيننا الله.



الكاتدرائية

تسلّل أحدُ أشعةِ الشمس إلى القاعة راسماً خطًّا مستقيماً ينطلق من إحدى زوايا النافذة عابرًا القاعة ليستقرّ على التمثال المثبت على الحائط فيزيده توهجًا وبريقًا، كعادته في مثل تلك اللحظات التي يخلو فيها الكاردينال بنفسه، تهاجمه ذكرى قسمه الذي أقسمه يومَ أن كان راهبًا صغيرًا في رهبانية الفرنسيسكان، لقد أسرعتِ السنون، إنّه على مشارفِ الرابعة والستين من عمره، ولم يحقّق إلّا جزءًا صغيرًا من حلمه، لم يستطع إلى الآن أن يُطهّر الجزيرة من أولئك الكفرة، الآن هو رأس الكنيسة الكاثوليكية القشتالية وصاحبُ أعلى منصبٍ بعد الملكين، أو هو الحاكمُ الفعلي لقشتالة باستيلائه على عقل الملكة إيزابيلا، يؤجّج فيها نارَ الحقد والتعصب فتفعل ما يريده منها من اضطهاد وفرض الضّرائب الباهظة على الموريسكيّين. أطال النظرَ إلى يديه المجعدتين اللّتيْن بدتا وكأنه في المائة من عمره، رغم أنّه لم يتجاوز عامَه الرابع والستين، انتبه إلى الباب يُطرق فانتزعَه ذلك من أفكاره، دخلَ مساعده ودنا منه بإجلال:

- مرحبًا سالثيدو.

اقتربَ سالثيدو من المكتب، وقدّم له لفافة من الأوراق مشدودةً بقطعة من القماش.

- تقويم المحرقة يا سيدي.

وضعَ سالثيدو الأوراق أمامَ الكاردينال، ففضّ الكاردينال الأوراق وبدأ في مطالعتها.

– ألبسة الأثمين (السانبنيتو)	٢٥٠٠٠ دوكيه
– منصّة ومقاعد	١٢٠٠٠ دوكيه
– شموع وقار وحطب وصلبان وقبعات	١٠٥٠٠ دوكيه
– رواتبُ فرق الجنود المكلفة بالتأمين	١٥٠٠٠ دوكيه
– وجباتُ الآثمين وأعضاء المحكمة	٧٠٠٠ دوكيه
– المجموع	٥٤٥٠٠ دوكيه

نحّى الكاردينال الأوراقَ جانبًا وقد بدا عليه الضجر:

– ألَا تلاحظ أنّ كلفة ملابس الآثمين مرتفعة جدًّا؟!

قال سالثيدو:

– ماذا في وسْعنا أن نفعلَ يا سيدي؟ هذا ما قرّره المجلس؛ ألّا نعرضَ المتهمين حفاةً عراة في الاحتفال، فصار لزامًا علينا توفيرُ الزي المناسب لهم، وهم لا يستطيعون تدبيرَ أمرهم لطول مكوثهم في السجن بالشهور، وهذا يستنفد ما لديهم من أموال، وعائلاتهم يتمّ مصادرة أموالهم، ولا يستطيعون توفيرَ أي شيء لهم، لأنّهم أصبحوا عالة على الناس، رغم.......

قاطعه الكاردينال خمنيس بحدة:

- أعلمُ أنّ علينا التكفّل بكلّ هذا، لكن وجبَ علينا التخفيف، وهذه الأموال تستنفد خزانةَ الديوان، ولا يعقل أيضًا أنْ نقلّص تلك المحارق من أجل قلة الموارد المالية، ليتمّ إعلام الكونت تنديا بتلك المبالغ لتتحمل الحكومة نصفها.

- أمرُ قداستك، سأحمل له نسخةً من تلك الأوراق.

- دعكَ من هذا الآن، هل جلبتَ معك باقي الأوراق؟

- هل يقصدُ سيدي لائحة الميريتوس؟ (لائحة الخطايا المقترفة، وما يقابلها من عقوبات).

وضعَ سالثيدو الوثائقَ على المكتب فانكبّ الكاردينال عليها يطالعها، ثمّ نحّاها جانبًا ورفعَ رأسه مخاطبًا سالثيدو:

- أتعلم يا سالثيدو ما فائدةُ تلك المحاكمات التي يتبعها مراسم الإحراق؟

سؤالٌ لم يكنْ سالثيدو يتوقّعه من الكاردينال، فتمتم سالثيدو قائلًا:

- إنقاذُ روح المتّهم من الخطيئة التي لحقت به جرّاء هرطقته.

قهقهَ الكاردينال فدوّت ضحكاتُه في أرجاء الكاتدرائية وهتف قائلًا:

- عليكَ أن تتذكّر جيدًا أنّ الهدف الأساسي من المحاكمة، ثمّ التنفيذ، ليس إنقاذ روح المتّهم؛ بل الوصول إلى إخضاع الناس، وزرع الخوف في قلوب الآخرين.

عادَ الكاردينال ليقرأ لائحة الميريتوس التي كان قد نحّاها جانبًا، قلّب في الأوراق باحثًا عنْ شيء، إنّه يتذكر تلك النظراتِ التي أرعبته عندما التقتْ عينه بعين أحد المهرطقين، فهتفَ قائلًا:

– لقد وجدتُها!!

شرعَ الكاردينال في قراءة لائحة المتريتوس الخاصة بالمهرطق بيدرو:

– بيدرو (محمد)، خمس وثلاثون عامًا، من مواليد غرناطة، ويسكن في حي البيازين، وكان يعمل وَرّاقًا، تمّ تعميده عام ١٥٠٢م، ارتدّ وعاد إلى الإسلام، كان يعيشُ حياة مزدوجة؛ مسيحيًّا من الخارج، مسلمًا من الداخل، تمّ الإمساك به وهو يؤدّي صلاة المسلمين، لا يأكل لحمَ الخنزير، ولا يعاقر الخمر، ولا يذهب إلى الكنيسة في أيام الآحاد، ويستهزئ بالعظات التي تلقَى في الكنيسة، ولم يبدُ عليه الندمُ على ماَ ارتكب من خطايا أثقلت روحه، وكان يفترض به أنْ يكون إنسانًا مخلصًا لأمّنا الكنيسة، وقد صُودرتْ أمواله، وحُكم عليه بالإعدام حرقًا، وتمّ تسليمُه إلى السلطة المدنية لتنفيذ باقي الإجراءات.

أمسكَ سالثيدو ببعض الأوراق، وناولها للكاردينال الذي بدوره أمسك بها وقال:

– ما هذا يا سالثيدو؟

– هذا ما سجّله جواسيسنا في حفلة الأوتودافي اليوم، وقد جمعت لقداستك أسماء كلّ مَن ظهر عليه تعاطفٌ مع هؤلاء المهرطقين.

أخذَ الأوراق وهتف قائلًا:

– ليباركِ الربّ مَسعاك يا سالثيدو، أنت تقوم بعملٍ جيّد في تطهير غرناطة من الكفرة.

بدأ الكاردينال خمنيس في قراءةِ الأوراق، مرّ عليه اسمٌ مألوف لديه، تذكر نظراته جيدًا يومَ قام بتعميده في الكاتدرائية، فهبّ واقفًا وقال:

– لدينا خراف هربتْ ثانية من حظيرة الربّ يا سالثيدو، وجبَ علينا إرجاعها.

زوى سالثيدو ما بين حاجبيه، وقد تملكه العجب، وقال:

– مَن ذاك يا صاحب القداسة؟

أطلقَ الكاردينال ضحكةً عالية تردّد صداها في الأرجاء وقال:

– إنّه يريد خداعنا، لنجعله عبرة لغيره.

هتفَ سالثيدو متسائلًا:

– مَن يا سيدي؟

انتقلَ الكاردينال ناحية الشرفة المطلّة على حيّ البيازين، أطال النظر ولمعت عيناه وحانتْ منه التفاتة للوراء، وهتف:

– ألفونسو أو عبد الرحمن.

***

دوّت تلك الكلمات عالية، أرهفَ التاريخُ لها سمعه، ليكون شاهدًا على تلك المأساة، وما سيقعُ على ذلك المسكين، حكاية جديدة.

بدأ التاريخُ في تدوينها في ذاكرتِه الخالدة، حفظها إلى ذلك اليوم الذي سيقصّها على الناس.

لتكونَ حكايةً من حكايا التاريخ.

